الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة ابن خلدون تيارت –الجزائر –

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

قسم التاريخ

حامل بيداغوجي موجه لطلبة السنة الثالثة ليسانس ل.م.د

السداسي الخامس

تخصص تاريخ

بلدان المغرب العربي الحديث (ق16–ق 19)

إعداد :

- د . بوسلامـــة محمد

السنة الجامعية (1446 – 1447هـ) (2025 – 2026م)

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

شهدت بلدان المغرب العربي (الجزائر، تونس، المغرب الاقصى وطرابلس الغرب) في الفترة الممتدة ما بين القرن 16م إلى القرن 19م تحولات وإحداث طبعت تاريخه الحديث، والتي اتسمت أيضا بوجود الدولة العثمانية التي وقفت في وجه التحرشات الاسبانية والبرتغالية، وفي هذا السياق جاءت دراستنا لمقياس بلدان المغرب العربي الحديث، لإبراز جوانب مهمة من تاريخ منطقتنا المغاربية من الناحية السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية التي عرفتها مند ظهورها وبروزها على الساحة الدولية خصوصا خلال الفترة الحديثة .

أولا- أهمية الموضوع :

تكمن أهمية الموضوع في تسليط الضوء والاهتمام بتاريخ المنطقة المغاربية ، وتلقينه لأبنائنا الطلبة بغية ترسيخه في ذاكرتهم والمحافظة عليه .

ثانيا- أسباب اختيار الموضوع

أ – أسباب ذاتية:

من أبرز الأسباب التي أدت إلى اختيار هذا المقياس هو:

- الرغبة في البحث عن الدور الذي قامت به المنطقة المغاربية كقوة فاعلة في الحوض الغربي للمتوسط خاصة في مواجهتها للاستعمار الاسباني والبرتغالي اللذين حاولا تنصير المنطقة والاستحواذ عليها.
- محاولة الوصول بطالب الباحث الى معرفة كل ما يحيط ويخص تاريخ المنطقة المغاربية من احداث ووقائع تاريخية خصوصا خلال الفترة الحديثة .

ب – أسباب موضوعية:

- إبراز رموز المنطقة المغاربية والافتخار بهم خاصة الفترة الحديثة والدفاع عنهم خصوصا الذين شوهوا من قبل المدرسة الفرنسية .
- إضافة عمل اكاديمي والمساهمة في دراسة مستفيضة ومعمقة لتاريخ المنطقة وحمايته من التزوير والتشويه.

ثالثا- الاشكالية المطروحة :

وعلى هذا نطرح الإشكالية التالية : كيف كانت حالة بلدان المغرب العربي تحت الحكم العثماني ؟ وللإجابة على ذلك طرحنا مجموعة من التساؤلات والتي تمثلت في :

- ما الغاية من تدريس هذا المقياس للطلبة؟
- هل سيلقى هذا المقياس اهتماما من قبل الطلبة؟
- هل سيستفيد الطلبة من هذا المقياس؟

وللإجابة على ذلك اتبعت في دراستي هذه ، خطة مكونة من مقدمة ومحاور وخاتمة .

رابعا- المنهج المتبع : اعتمدت في بحثي هذا على ثلاثة مناهج علمية وهي :

أ – **المنهج التاريخي الوصفي**: اعتمدت فيه على وصف واستعراض الإحداث والوقائع التاريخية حسب التسلسل الزمني .

ب– المنهج التحليلي: خصصت هذا المنهج لدراسة الوقائع ومناقشتها وربطها ببعضها البعض.

ج– المنهج الإحصائي: قدمت فيه بعض الإحصائيات حول عدد الحكام الذي حكموا بلدان هذه المنطقة من العنصر التركي والعربي خاصة في المغرب الأقصى.

خامسا- الكفاءة المستهدفة:

أن يكون الطالب قادرا على تحديد الموقع الاستراتيجي لبلدان المغرب العربي ومعرفة الأسباب التي كانت وراء ضعفها في أواخر القرن الخامس عشر ميلادي وكيف كان عرضة للتحرش الأوروبي المسيحي المتمثل اسبانيا والبرتغال على سواحله في بداية القرن السادس عشر وكذا دخول الدولة العثمانية كطرف في الصراع على سيادة حوض المتوسط شرقا وغربا خلال القرون الثلاثة اللاحقة .

سادسا- الخطة المتبعة:

1. سقوط غرناطة وانعكاساتها على الدول المغاربية .
2. أوضاع الدول المغاربية في أواخر القرن الخامس عشر ميلادي ومطلع القرن السادس العشر .
3. المد العثماني في الحوض الغربي للمتوسط .
4. ظروف إلحاق الدول المغاربية (طرابلس الغرب، تونس) بالدولة العثمانية .
5. تطور نظام الحكم في الجزائر خلال الفترة العثمانية.
6. تطور نظام الحكم في المغرب الأقصى في فترة السعديين والعلويين .
7. تطور نظام الحكم في تونس .
8. تطور نظام الحكم في طرابلس الغرب.
9. علاقات الأقطار المغاربية الخارجية مع المشرق العربي .
10. علاقات الأقطار المغاربية الخارجية مع إفريقيا.
11. علاقات الأقطار المغاربية الخارجية مع أوروبا.
12. الحياة الاجتماعية في بلدان المغرب الحديث.
13. الحياة الاقتصادية في بلدان المغرب الحديث.
14. العلاقات الثقافية بين البلدان المغاربية .

سابعا- دراسة المصادر والمراجع:

اعتمدت في هذه الدراسة على مجموعة من المصادر والمراجع المتنوعة باللغتين العربية والأجنبية .

1. ابن أبي الدينار، المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس، تح. محمد شمام، المكتبة العتيقة، تونس، 1967م.

2. ابن زاكور الفاسي، رحلة ابن زاكور الفاسي نشر ازاهر البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان من فضلاء وأكابر الأعيان، الجزائر، المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، 2011.

3. الناصري، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، الدولة السعدية، تح. جعفر الناصري، محمد ناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1955م، ج5.

4. الناصري أبو راس، عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، تح: محمود بوركبة، ط1، ج1، منشورات الشؤون الدينية، 2002.

5. ابن إسماعيل عمر بن علي، انهيار الأسرة القرمانية في ليبيا 1795-1830، دون تاريخ.

6. ابن المرابط المنتصر، نور الأرماش في مناقب أبي الغيث العشاش، المكتبة الوطنية التونسية.

7. Bandini Franco: Gli italiani in Africa. Storia delle guerre coloniali 1882-1943 [The Italians in Africa. History of the Colonial Wars 1882-1943] (in Italian), Milan: Longanesi & C, 1971.

8. Berthier Pierre : La bataille de l'oued el-Makhazen : dite bataille des Trois Rois (4 août 1578), Ed. du C.N.R.S., Paris, 1985.

9. BRAUDEL Fernand: The Mediterranean and the Mediterranean World in the Age of Philip II, Volume 01, Univ of California Press, 1995.

10. Brevés : Relation de Voyages, Paris, 1628.

المحاضرات

المحاضرة الأولى: سقوط غرناطة وانعكاساته على الدول المغاربية.

أدى ضعف وتقاتل مسلمي غرناطة إلى قيام الدولة الإسبانية الحديثة على أنقاض الحضارة الإسلامية في الأندلس - غرناطة- سنة 1492م، وبداية حروب الاسترداد Reconquestra والتي تندرج ضمن إطار الحروب الصليبية الجديدة، أين انطلقت بالتوسع الأيبيري على أراضي المغرب العربي. استغل المحتلون ضعف شوكة السلطات المغاربية وتشتت حزبهم وتناحر الإخوة الأشقاء لأجل المصلحة الفردية ال العامة، وكل هاته الإشكالات أعطت مصوغا قويا ودافعا يضاف إلى دوافع الصراع الحضاري الأوروبي الإسلامي لأجل احتلال غرناطة سنة 1492م.

1- أسباب سقوط غرناطة 1492م:

لعلّ أحد أهم الأسباب التي أدّت إلى سقوط الجزيرة الأندلسية عامة وغرناطة خاصة هي ضعف الوازع الديني والروحي لدى قادة المدينة، فرغم التفوق العلمي والمعماري والحضاري، إلّا أن فقدان الحافز الديني جعل الفتوحات والجهاد ضد الغزاة الإسبان، فمثلا: كان الحافز الديني هو الذي جعل الأخوين بربروسة وعلى قلة مواردهما وتسليحهما ينتصران على الجيوش الإسبانية ذات العتاد والتنظيم العسكري، فعروج وخير الدين لم ينظرا إلى حربهما ضد الإسبان إلى أنّها حرب مجردة من الوازع الديني، وإنما هي جهاد للموت في سبيل الله، وهذا ما يمكن أن نستشفه من خلال الاطلاع على مذكرات خير الدين بربروسة[1].

احتلال جميع الأراضي الأندلسية وبقاء غرناطة معزولة، ففي الوقت الذي كانت فيو القوة المسيحية تتقوى وتتوحد باحتلال تلو الآخر، كانت الدولة الإسلامية تتفكك تدريجيا إلى أن بقيت غرناطة معزولة ومتفردة.

التوقف عن المقاومة واتخاذ سبيل المهادنة ودفع الضريبة، جعل الجيش خاملاً وغير مستعد للحرب، كما أدى إلى استيلاء الحلف المسيحي على القلاع والأراضي

[1]- ينظر: خير الدين بربروسة، مذكرات خير الدين بربروسة، الأصالة للنشر والتوزيع، الجزائر العاصمة، 2010.

المتاخمة للمدينة، وهكذا حوصرت غرناطة، وحتى لما قال الملك أبو عبد الله في رسالة تعود لسنة 1478م "أنّ غرناطة لن تدفع الضريبة مجددا، وإن أموالها ستخصص للرماح والأسلحة وذلك لأجل الدفاع عن ثغورها"، فإنه تأخر في اتخاذ القرار حيث تمكن الإسبان من الاستيلاء على الحدود المتاخمة لغرناطة حيث شكلت سنوات 1478م، 1479م و1480 استلاء قشتالة وأراغون على الكثير من القلاع وتجاوز الحدود المعترف بها سابقا[1].

التشتت الداخلي والصراع على السلطة، ففي الوقت الذي تحالف فيه ملك قشتالة وأراغون ضدّ مسلمي غرناطة "دخلت غرناطة في حقبة من التشتت والتمزق استفاد منها الإسبان[2].

كان للنساء دور في تغذية هذا الشقاق والخلاف، حيث تزوج أبو الحسن أواخر حكمه فتاة نصرانية تدعى إزابيل دي سوليس[3] أو كما تسميها المصادر العربية ثريا الرومية[4]، والتي أسرت في إحدى الحروب، وهي ابنة أحد القادة الإسبان المعروفين المدعو سانشو خيمنيث دي سوليس، حيث أنجبت له ثلاث أطفال تنصر اثنان منهما بعد سقوط غرناطة، وأخذا اسمي فرناندو وخوان، كما أن أمهما عادت إلى نصرانيتها الأولى، حيث لعبت دورا بارزا في إسقاط المملكة[5]، وتأليب الملك أبو الحسن على أبنائه من زوجته الأولى عائشة الحرّة[6]، إلى أن وصل به الأمر إلى سجن زوجته عائشة في أحد الأبراج، ومحاولته التخلص من ابنه أبو عبد الله محمد الثاني عشر (1460-1527)، ففرت عائشة من القصر ومعها أولادها فبايعها الشعب الغرناطي، وهكذا انشق المجتمع إلى جبهتين متقاتلتين.

---

[1] Catherine Gaignard, Maures et chrétiens à Grenade 1492-1570, Editions L'Harmattan, 1997, p. 16.

[2]- علي المنتصر الكتاني، انبعاث الإسلام في الأندلس، دار الكتب العلمية، 2005، ص.

[3]- بلقاسم صديقي، غرناطة بين الصمود وحتمية السقوط وأثرها على المغرب العربي والمواقف الإسلامية منها، مجلة الدراسات التاريخية، ع1، جامعة الجزائر، أكتوبر 2019م، ص ص 60-61.

[4]- عنان خلف سرهيد، التأثر الحضاري المتبادل بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية، دار حميثرا للنشر والترجمة، العراق، 2018، ص 68.

[5]- محمد بن عبد الله عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ج7، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1997م.

[6]- بلقاسم صديقي، المرجع السابق، ص 63.

ولم يتوقف هذا النوع من الزواج عند الأمير وحده فقط، بل تعداه إلى حاشيته وساكنة المدينة، فتزوج الكثيرون من النصرانيات، ومن حاشية السلطان الذين تزوجوا من النصرانيات مثل: "زواج ابن الخطيب من جارية إسبانية... إلخ"، وهكذا ظهر جيل جديد عرف بالمولودين[1]، حيث تأثر هؤلاء المولودين الجدد بدين ونمط حياة أمهاتهم المسيحية.

لعلّ أيضا من الأسباب التي ساهمت في بداية تآكل وسقوط الأندلس هو عملية التدجين التي اتخذتها السلطات الإسبانية ضد أولئك الباقين من المسلمين بعد احتلال أراضيهم، حيث كسب الطرف الإسباني جانبهم سواء من خلال ترغيبهم والإبقاء على ممتلكاتهم أو ترهيبهم وذلك بإلزامهم باعتناق النصرانية، وكان لهذا التحييد دور بارز في عدم توحد العامة المسلمة ضد التحالف النصراني، بالإضافة إلى "أنهم عيّنوا في المناطق التي تم احتلالها من قبل الإسبان لتسيير موارد هاته المدن من خلال إدارة شؤون العمارة والبناء والري"[2].

2- سقوط غرناطة سنة 1492م:

بعد سقوط أغلب مناطق الأندلس وبقاء غرناطة معزولة في شبه الجزيرة الإيبيرية، سعى المتحالفون في مملكتي أراغون وقشتالة إلى إسقاط غرناطة خلال الفترة الممتدة بين سنتي 1474-1492م.

وقد اشتدّت هاته المعارك خلال الفترة بين سنتي 1481-1491م، وذلك في حكم الملكة إيزابيلا وفيرديناند الثاني ملك أراغون، ولم تكن هاته المعارك قارة ومستقرة وإنما عبارة عن مجموعة معارك تندلع في الربيع وتتوقف في الشتاء، وحتما فإن المشاكل الداخلية قد أثرت بشكل واضح على المدينة في النهاية، ففي الوقت الذي كان من الجدير بالسلطة ومعارضيها تبني اتحاد داخلي، وتوجيه صراعاتهم إلى الخارج، رضخوا إلى الاستكانة والهوان وقاموا بقبول الضريبة التي فرضت عليهم من قبل الكاستيل.

[1]- عنان خلف، المرجع السابق، ص 69.
[2]- فريق بصمة، التاريخ كما كان، كتوبيا للنشر والتوزيع، مصر، 2016، ص 174.

وكان التوسع الإسباني حالة طبيعة خاصة مع وجود ملكين متعصبين للمذهب الكاثوليكي مثل الملك فيرديناند والملكة إيزابيلا، حيث بدأ التوسع بمراسلة الملك الغرناطي أبي عبد الله محمد بن علي يطلبان منه تسليم واد آش وألميرية على أن يبقى حاكما على غرناطة، شرط أن يكون خاضعا وتابعا لهما سياسيا، فرفض أعيان ووجهاء وقادة وجنود المدينة فكرة الاستسلام ودعوا إلى المقاومة، وأمام هذا الحماس أبلغ عبد الله الملك الإسباني برفض عرضه، وتمكن المسلمون من تحقيق عدد من الانتصارات ضد النصارى، حتى أنهم توسعوا في المناطق المجاورة واستعادوا بعض القلاع والقرى؛ لكن سرعان ما استعاد الإسبان هاته الثغور خاصة مع امتلاكهم لمدفعية قوية.

وفي الوقت الذي كانت فيه القوى الإسلامية تعيش شتاتا وتناحرا، فإن مملكة أراغون تحت قيادة فيرديناند وقشتالة تحت حكم الملكة إيزابيلا، اتحدتا تحت لواء واحد سنة 1479م[1]، حيث أصبحت أموال الحملة تأتي من الكاستيل، وكان من نتائج الاتحاد أن استولى فيرديناند بتاريخ الرابع عشر ماس سنة 1482 على الحامة، ولعلّ ما زاد الطين بلّة هو انشقاق الملك أبو عبد الله محمد الثاني عن والده أبو الحسن سنة 1483م، أين دخل الطرفان في حرب أرهقت الجانبين دون أن ينتصر فيها أي أحد سوى الإسبان، ولو اتحد الطرفان لكان صمود غرناطة سيطول أكثر.

ولم يتوقف الأمر عند هذا الأمر فقد هزم الملك أبو عبد الله وهو يحاول فتح قشتالة وذلك في معركة لوسينا سنة 1483م وأخذ أسيرا؛ لكن الملك فرديناند كان ذكيا وحاول استخدام الملك أبو عبد الله لاحتلال غرناطة، ففي رسالة مؤرخة في أوت سنة 1483 كتب فيرديناند: "ولتحطيم غرناطة فقد قررنا تحريره - يقصد الملك عبد الله-، وذلك ليحارب والده"[2]، وفعلا تم توقيع اتفاق تحالف بين الطرفين ورجع عبد الله إلى عرشه.

[1]- بلقاسم صديقي، المرجع السابق، ص 63.

[2] -Hillgarth JN, Spanish Kingdoms, 1250-1516, vol.2, Oxford University Press, 1976, p. 381.

وما إن غادر أبو عبد الله قشتالة حتى قضى سنوات يحارب والده، إلى أن استدب له الحكم سنة 1486، وفي خضم هذا الهوان والصراع المشتعل بين الابن ووالده حاصر فرديناند ملقة بين السابع ماي وإلى غاية الثامن عشر أوت سنة 1478م، ويذكر هيلغارت: "أن قائد القلعة دافع مستميتا رفقة المسلمين والمهتدين الذين رفضوا تسليم المدينة[1]، لكن وما إن سقطت المدينة في النهاية في أيدي الإسبان، حتى تم استعباد ساكنيها بتهمة المقاومة، وأما المهتدون فتم إحراقهم أحياء"[2].

سقطت بعدها باخة في يد الملكين سنة 1489م، ومنذ تلك اللحظة بدأ الملكان فرديناند وإيزبيلا يفكران بجدية في احتلال غرناطة، فعرضا على الملك عبد الله تسليم المدينة غير أن الأخير رفض الأمر رغم التحالف الذي كان يجمعه بالملكين، ولأنه رأى أغلب الأراضي التي وعد بها تؤخذ منه واحدة تلو الأخرى، حيث لم يتبقى في نطاق حكمه سوى مدينة غرناطة وجبال البشرات[3].

وأمام هذا الوضع بدأ الملكان عملية احتلال غرناطة، بداية من أفريل سنة 1491م واستمر المسلمون في المقاومة دون استكانة ولا هوان، "ورغم أن الملك عبد الله كان يرغب في نهاية الأمر بتسليم المدينة، إلا أن العامة رفضت القرار واستمرت في المقاومة رغم أنف السلطة، ويذهب هيلغارت إلى أن الكثير من مستشاري الملك عبد الله كانوا يعملون لصالح الملك فيرديناند طوال الوقت"[4].

وانتهى الطرفان في الأخير إلى توقيع اتفاق استسلام بتاريخ 25 نوفمبر سنة 1491م، كما لا يزال هناك اختلاف بين المؤرخين حول التاريخ الفعلي لاحتلال مدينة

[1] - -Hillgarth JN., op.cit, p. 384.
[2] - Prescott WH. The Art of the War in Spain: The Conquest of Granada, 1481-1492, Greenhill Press, 1995, p. 287.
[3] -Hillgarth JN, op.cit., p. 385.
[4] -Ibid., p. 386.

غرناطة، ويبدو أن مرحلة الاحتلال مرّت عبر مراحل خلال الفترة بين 1-6 جانفي سنة 1492م، وكان الدخول إلى المدينة وفق ما أوردته التسجيلات الإسبانية "دخولاً سرياً"[1].

3- انعكاسات سقوط غرناطة 1492م:

ما إن سقطت غرناطة عام 1492م حتى بدأ سيل الرسائل ينزل على الملكين إليزابيثا وفيرديناند من كلّ صوب وحدب من الممالك المسيحية، في حين أرى العالم الإسلامي في هذا السقوط نكسة أساءت الفتح العثماني للقسطنطينية سنة 1452م.

لعلّ أوّل ما تبع السقوط هو بداية إلحاق غرناطة بالإرث والفكر المسيحي، حيث "عيّن بعد الاحتلال مباشرة الكونت دي تينديا حاكما وهيرناندو دي تافيرا أسقفا على المدينة وكلاهما رجلان متعصبان، وأول أمر قاما به هو تحويل أكبر مساجد غرناطة إلى كاتدرائية"[2].

ورافق إعادة تحويل المساجد إلى كنائس إجبار المسلمين واليهود على اعتناق المسيحية، حيث أنّه "وبحلول سنة 1501م كان كل يهود الجزيرة الإيبيرية قد اعتنقوا المسيحية، في حين أجبر المسلمون على التنصر أو التهجير، فبحلول سنة 1526م كانت فكرة تنصير المسيحيين قد عمّت كل أرجاء إسبانيا، أين خصص في هاته السنة مراقبون في كل المدن الإسبانية مهمتهم ملاحظة سير عملية التنصير، مثل: أنطونيو دي خويفيرا وغاسبر دي أفايوس[3].

وتولّت عملية محاكمة المسلمين الذين بقوا على دين الإسلام محكمة التفتيش التي أسست سنة 1478م، والتي لا تزال إلى يومنا هذا عار على الكنيسة الكاثوليكية، "حيث

[1] - Richard Hitchcock, The Conquest of Granada in Nineteenth-Century English and American Histography, Medieval Spaim, Jan. 2002, p. 242.

[2] - Ali Kettani, Muslims in Spain after the Fall of Granada: suppression, Resistance, Eclipse, and Re-emergence, Islamic Studies, 1997, vol. 36, num. 4, Winter 1997, p. 614.

[3] - De L.P. Harvey, Muslims in Spain, 1500 to 1614, University of Chicago Press, 2005, p. 55.

ذهب البعض إلى أنّها قتلت منذ تأسيسها وإلى غاية تعطيل نشاطها خمسة ملايين"[1]. كما كان لها دور سلبي على أهل الأندلس، ففي "سنة 1499م استدعى الحكام الكاثوليك الكاردينال دي سيتيروس إلى غرناطة وطلبنا منه التضييق على المسلمين لعلّهم يعتنقون الديانة المسيحية، وكان رد الكاردينال أن استولى على جميع المساجد وجعلها كنائس، بالإضافة إلى أنّه قام بالضغط على العلماء المسلمين للتحول إلى المسيحية"[2].

هجرة آلاف المسلمين نحو المغرب العربي، أين غادر العديد من المسلمين الأرستقراطيين إسبانيا للاستقرار في أحد مدن الساحل المغاربي، وذلك حفاظا على معتقدهم وإيمانهم، ولعلّ أوّل المغادرين هو الملك أبو عبد الله الذي استقر في المغرب، في حين اختار بعض حاشية الملك برغبة منهم البقاء في غرناطة، أما العامة الفقيرة فقد اضطرت إلى البقاء في المدينة والمحافظة على دينهم، ولو بالتخفّي وذلك لنقص مواردهم[3].

أدت عمليات التنصير والتهجير إلى اندلاع الثورة التي قادها إبراهيم ابن أميّة سنة 1500م، وما إن فشلت حتى بيع المجاهدون وعائلاتهم في أسواق العبيد، ونفس الأمر وقع في ألميريا وروندا[4].

استمرار حروب الاسترداد كما سماها الإسبان في المغرب العربي، حيث أنهم احتلوا الكثير من المناطق، فاحتلوا المرسى الكبير سنة 1505، ووهران 1509م، وبجاية 1510م، وطرابلس الغرب 1510م، كما اضطرت الكثير من المدن الساحلية الجزائرية إلى دفع الضرائب وإعلان الولاء للإسبان، ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد فقد توسع البرتغاليون والإسبان إلى أن وصلوا البحر الأحمر والمشرق العربي.

[1]- ينظر: كارين أرمسترونغ، النزعات الأصولية في اليهودية والمسيحية والإسلام، ترجمة محمد الجورا، دار الكلمة، ط1، دمشق، 2005.

[2]- ينظر: De L.p. Harvey, op.cit.

[3] - Ali Kettani, op.cit., p. 614.

[4] - Ibid., p. 614.

المحاضرة الثانية: أوضاع الدول المغاربية في أواخر القرن الخامس عشر ميلادي ومطلع القرن السادس العشر .

يبدو أن أحد أهم أسباب سقوط غرناطة والأندلس عامة هو نتاج ضعف الدويلات المغاربية، التي كانت تعيش حالة من التفكك والصراع السياسي، فمنذ سقوط دولة الموحدين والمغرب العربي يعيش حالة من الشقاق والصراع بين دويلاته، حيث لم يكن الإسبان ليتوسعوا في المنطقة لو لم يعلموا يقينا أن الوضع يسمح لهم بذلك.

بالإضافة إلى أن الحالة العكسية للحضارة كانت في آخر مراحلها، ففي الوقت الذي كان فيه الإسبان يعزّزون وحدتهم ويتوسعون خارج نطاق تواجدهم، كان التطاحن والاقتتال على السلطة والتفكك الداخلي في أوجه، ذلك أن الكثير من القادة فضّلوا مصالحهم الشخصية عن الوحدة، وهكذا أصبح المغرب العربي كله لقمة صائغة للمحتل الإسباني.

1- الصراع السياسي في دول المغرب العربي 1500-1492م:

كان المغرب العربي مقسما لثلاث دول: المرينيون في المغرب والزيانيون في الجزائر والحفصيون في تونس. حكمت الدولة الزيانية الجزائر لقرون وذلك لغاية سقوطها سنة 1554م، ولعلها كانت أقوى سلطة في الجزائر، أين خضعت للدولة الموحدية "وتوسعت في بالد بني واماتوا ووبني يلومي وبنواحي وادي ميناس وأحواز غليزان"[1].

لكن ما إن بدأت الدولة الموحدية في الانهيار حتى سارع حكام الدولة الزيانية إلى الاستقلال بأنفسهم والسيطرة على المغرب الأوسط، ولم يكن هذا الاستقلال إلا بداية لتفكك المغرب العربي إلى دويلات استقلت بنفسها عن سلطة الموحدين.

ثم سرعان ما أصبحت دولا متقاتلة فيما بينها، حيث حاول المرينيون والحفصيون مراراً احتلال الجزائر وإلحاقها بدولتهم، فاحتل الحفصيون بجاية وقسنطينة والزاب.

[1]- عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، المطبعة العربية، الجزائر، 1955م، ص 115.

لقد كان امتداد الدولة الزيانية الفعلي لا يتجاوز مدينة تلمسان في الحقيقة وساحل البحر، في حين كانت المناطق الجزائر الأخرى عبارة عن إمارات ودويلات مستقلة، مثل: مدينة تنس، والجزائر العاصمة التي يحكمها الثعالبة - سالم التومي- تحت نظام الجماعة، ومملكة كوكو تحت سلطة ابن القاضي بالإضافة إلى هضاب التيطري، وملیانة... إلخ.

وأما سلطة الحفصيين "فقد امتدت لتشمل الجزء الشرقي من الجزائر، مثل: قلعة بني عباس وإمارات أخرى راوحت مكانها فمرّة تستقل لنفسها بالحكم وتارة أخرى تدين بالولاء إما للزيانيين أو الحفصيين، مثل "إمارة بني المهلهل، وإمارة عائلة بوعكاز التي تمثل العرب الذواوة في الزاب والحضنة وبعض جهات الصحراء، وجهة حمزة وقبائل صنهاجة"[1].

وأما في الجهة الغربية فقد كان المغرب الأقصى تحت سلطة بني مرين، الذين استقلوا هم بدورهم عن الدولة الموحدية، وأحكموا قبضتهم على إمارة فاس ومراكش، في حين انفصلت إمارة سجلماسة تحت قيادة بنو معقل، وأما الوطاسيون فقد حكموا سلا والرباط.

وما إن أتت سنة 1472 حتى استولة الوطاسيون على فاس ونصّبوا أنفسهم حكاما جددا على المغرب الأقصى عامّة، حيث أطلق الملك المغربي لنفسه لقب "السلطان" وفي أحيان أخرى "أمير المؤمنين".

2- أسباب الاحتلال الإيبيري للمغرب العربي:

- ضعف السلطات المغاربية سياسيا وعسكريا، ما جعلها في حالة لا تسمح لها بالدفاع عن ثغورها وسواحلها.
- الروح الصليبية وسيطرة الكنيسة على السياسة حيث انعكست هاته الروح على قائديها الملكين الصليبيين المتعصبين إيزابيلا وفيرديناند، ضد كل ما هو

[1]- أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492-1792، ش.و.ن.ت.، الجزائر، 1968، ص 94.

إسلامي في المغرب العربي، أين سميّت هاته الحروب بـ "حروب الإسترداد أو Reconquista "، أي أن كل ما يقع على سواحل شمال إفريقيا هو إرث للإمبراطورية الرومانية، ويجب إعادته للإرث المسيحي الأوروبي[1].

- استغلال ثروات المنطقة خاصة مع تدهور الاقتصاد الإسباني نتيجة هجرة ساكنة الأندلس واستقرارهم على سواحل المغرب العربي.
- رأى الملوك الإسبان أنّهم قادة العالم المسيحي وهم الورثة الشرعيون للإمبراطورية الرومانية، حيث سادت فكرة "ملك واحد ودولة واحدة "، فأسس الإسبان إمبراطورية مسيحية وبدأوا توسعاتهم في كل من فرنسا وإيطاليا بالإضافة إلى المغرب العربي.
- السعي للسيطرة على تجارة الجزء الغربي من البحر الأبيض المتوسط، خاصة مع "أهمية الموقع الإستراتيجي الذي تزخر به المدن الساحلية الممتدة من طرابلس ووصولا إلى المغرب الأقصى"[2].
- ادعى الإسبان أن سكان المدن الساحلية في منطقة المغرب العربي، وبخاصة بعد أن انضم إليها مسلمو غرناطة والأندلس عامة، أصبحت منطقة تنطلق منها الغارات البحرية ضد السواحل الإسبانية، مثل: مدينة وهران طرابلس الغرب وجربة، كما منح الملك المغربي مدينة سلا للمهاجرين من الأندلس، حيث اتخذت مركزا ضد الإسبان.

3- الاحتلال البرتغالي والإسباني لمناطق المغرب العربي:

في الوقت الذي كانت الدويلات المغاربية غارقة في التناحر فيما بينها وتعيش انفصالا بغيضا، كان الإسبان قد بدأوا في احتلال المغرب العربي بمجرد سقوط غرناطة سنة 1492م.

---

[1]- ينظر:

Vella Andrew, Norman Housley, Religious Warfare in Europe, 1400-1536, New York: Oxford University Press, 2002, p. 78.

[2]- دوبالي خديجة، الغزو الإسباني على السواحل الجزائرية (911-917هـ/ 1505-1511م)، مجلة القرطاس، ع. 06، جوان 2017م، ص 26.

وتعود أولى عمليات احتلال في المغرب العربي إلى محاولة الإسبان احتلال مدينة تطوان سنة 1400م، حيث يذكر أحمد توفيق المدني أن الإسبان "قد احتلوا مدينة تطوان وأثخنوا فيها القتل حتى ذهب البعض إلى أن الإسبان قد قتلوا نصف أهل المدينة، وساقوا الكثير من رجالها ونسائها أسرى إلى إسبانيا، في الوقت الذي كان فيه ملك المغرب أبو سعيد عثمان يحارب مملكة بني زيان بتلمسان"[1]، ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد وفي جانب آخر "فقد احتل البرتغاليون مليلية سنة 1497م، تحت قيادة بيدرو إيستوبنيان رغم المقاومة التي أبداها السلطان الوطاسي بإرسال فيلق من الخيالة لاستعادة المدينة"[2].

وما إن سقطت غرناطة سنة 1492م، حتى راسل كاتب الملكين المدعو فيرديناند زافر الملك الإسباني يقول: إن البلاد (المغرب العربي) في حالة بحيث يبدو أن الرب يريد أن يهبها لصاحبي الجلالة"[3]، وهكذا بدأ عصر جديد من عملية الغزو لدول المغرب العربي، ولإنهاء الحرب مع البرتغال توصل الطرفان إلى اتفاق بتوقيع معاهدة "توردیلاس بتاريخ الـ 07 جوان سنة 1494م، حيث تعود الأراضي التي تقع في الجهة الغربية من جزيرة الرأس الأخضر للاحتلال الإسباني، أما تلك الواقعة في الجهة الغربية فهي ملك للبرتغاليين"[4].

أرسل الإسبان في البداية جواسيس إلى منطقة المغرب العربي، ففي سنة 1493م "قام ليزكانو ولورينزو دي زافرا برحلات تجسسية إلى سواحل المغرب الأقصى، وأقام لورينزو دي باديال حاكم أنتيكييرا في زيّ تاجر مغربي في تلمسان مدّة سنة كاملة"[5].

[1]- أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص 66.

[2] -De Jamil M et Alt, A History of the Maghrib in the Islamic Period, Cambridge University Press, 1987, p. 146.

[3]- صالح عباد، الجزائر تحت الحكم التركي، دار هومة، الجزائر، 2012، ص 26.

[4] -Frances Gardiner Davenport, European Treaties bearing on the History of the United States and its Dependencies to 1648 , Washington, Institution of Washington, 1917, p171.

[5]- صالح عباد، المرجع السابق، ص 27.

ولم تتوقف الأطماع الإسبانية عند هذا الحد، فقد دعا رئيس الأساقفة الإسبان الملكة إيزابيلا إلى الاحتلال الكامل للمغرب سنة 1499م، وقد وافقت الملكة على الفكرة مدفوعة بالحماس لكن وفاتها سنة 1504م جعل فيرديناند الطامح إلى توسيع الوجود الإسباني في البحر المتوسط إلى التفكير في بناء إمبراطورية في إيطاليا، وجعل حاميات على المغرب العربي تفرض على دوله ومناطقه دفع الضريبة وإعلان الولاء للإسبان[1].

وفي المقابل فقد بدأت الأطماع الاحتلالية البرتغالية مبكرا في الغرب الجزائري، "حيث احتل البرتغاليون المرسى الكبير سنة 1471م ولم يغادروه إلا سنة 1477م، ثم أقاموا مؤسسة تجارية في وهران سنة 1483م وأخرى سنة 1487م"[2].

قاد بعدها البرتغاليون حملة جديدة ضد المرسى الكبير سنة 1501م، غير أن سوء الأحوال آلت دون رسو الجيش البرتغالي خلال ثلاثة أيام كاملة، حيث سمحت هاته المهلة للساكنة المحلية بالاستنجاد بأهل القرى والمدن المجاورة، حيث تمكنوا في النهاية من هزم القوات البرتغالية ودحرها[3].

وجه الإسبان حملة جديدة ضد المرسى الكبير عام 1505م، وتعتبر أولى الحروب الإسبانية ضد الدولة الزيانية، أين تم تجميع أسطول يتكون من 170 سفينة حربية في ميناء ملقة، على متنه سبعة آلاف جندي إسباني، كان قائد البحرية هو قيادة رامون دي قرطبة، أما الجيش فسلّمت مقاليده لدييغو فيرناندیز دي قرطبة[4]، وقد غادر الأسطول من ملقا بتاريخ الـ 09 سبتمبر سنة 1505م، وبلغ السواحل الجزائرية في 10 من نفس الشهر[5]، حيث بدأ الهجوم في مساء ذلك اليوم، "ولأنّ المدافعين لم يتجاوز عددهم

[1] - Frances Gardiner Davenport, op.cit., p. 147.

[2]- صالح عباد، المرجع السابق، ص 24.

[3]- دوبالي خديجة، المرجع السابق، ص 27.

[4] - JESÚS BERMÚDEZ RAMIRO: Modulaciones rítmicas en la lírica latina. Las Odas de Horacio. Madrid: Ediciones Clásicas, 2007, p. 201.

[5] - De Grammont, Histoire d'Alger sous la Domination Turque (1515-1830), Paris, Ernest Eroux Editeur , 1887, p. 06.

خمسمائة مجاهد، فإن المدينة سقطت في أيدي الإسبان"[1]،ويذكر ديغرامون قائلاً: "لقد قام الجزائريون بمقاومة شجاعة عديمة الجدوى، لكن نيران السفن أجبرتهم على التراجع إلى الجبال، حيث احتل الإسبان قلعة المدينة وجعلوا منها حامية لأنفسهم"[2]. وما إن وصل الخبر إلى إسبانيا حتى أعلنت احتفالات الشكر والصلاة للرب ثمانية أيام كاملة[3].

حتما فإن احتلال المرسى الكبير لم يكن سوى بداية لحرب يسميها الإسبان "حرب الاسترداد"، أي استرجاع جميع الأراضي التي كانت تحت حكم الرومان في منطقة المغرب العربي، والتي هي بالنسبة لهم إرث مسيحي يجب ضمه إلى الإمبراطورية المسيحية الإسبانية الجديدة.

وهكذا وجه الإسبان أنظارهم نحو وهران، فبدأ التحضير للحملة، حيث "غادر قائد حامية المرسى الكبير إلى إسبانيا أين التقى هناك الملكة خوانا التي منحته خمسة آلاف جندي، وجميع التجهيزات الضرورية التي يحتاجها"[4]، وفي 06 جوان سنة 1507م فشل الإسبان في احتلال وهران، رغم أنهم أثخنوا القتل والسبي والأسر في أهلها، كما "تمكن يحيى الثابتي من احتلال تنس بإعانة من الإسبان سنة 1507م"[5].

احتل بيدرو نافارو قلعة باديس سنة 1508م[6]، ثم وجه الإسبان أنظارهم نحو مدينة وهران، فخصص التاج الإسباني 39,6 مليون مرافيدي لاحتلال المدينة، وهي مبالغ ضخمة إذا قورنت بالمبالغ التي دفعها الإسبان في احتلال القارة الأمريكية والتي لم تتجاوز قيمتها 14 مليون مرافيدي[7].

[1]- دوبالي خديجة، المرجع السابق، ص 28.

[2] - De Grammont, op.cit., p. 06.

[3] - Ibid., p. 08.

[4] - Idem., p. 11.

[5]- أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص 109.

[6] - De Jamil M et Alt., op.cit., p. 147.

[7] - Ladero Quesada, Miguel Ángel, Las Indias de Castilla en sus primeros años: cuentas de la Casa de Contratación (1503-1521), Dykinson, 2008, p172.

أبحرت الحملة من ميناء قرطاجنّة بتاريخ 16 ماي سنة 1509م، وعلى متنها 15 ألف مقاتل، حيث نزلت بميناء المرسى الكبير يوم 17 ماي، ثم اتجهت نحو مدينة وهران؛ ورغم المقاومة التي أبداها أهل وهران في مجابهة المد الإسباني، إلا أن الخائن اليهودي ستورا وبعض الخونة الآخرين قاموا بفتح أحد أبواب المدينة عن غفلة من المجاهدين، فاقتحم الإسبان المدينة وفتحوا باقي الأبواب وأثخنوا في أهلها القتل، حتى امتلأت الطرقات بالقتلى، وقيل أن الكاردينال خيمينيس لم يستطع ضبط دموعه وهو يشاهد بشاعة المنظر[1].

ولم تتوقف الأطماع الإسبانية عند هذا الحد حيث جُهزت حملة عسكرية بواسطة بيدرو نافارو لاحتلال بجاية، والتي غادرت بتاريخ الـ 01 جانفي سنة 1510م، ووصلت بجاية يوم الـ 05 جانفي. حيث تم احتلالها رغم مقاومة أهلها[2].

وما إن انتهوا من المدينة حتى قادوا حملة لاحتلال طرابلس الغرب، وذلك بعد أن وقعوا سلما مع ملك تلمسان يدفع الأخير بموجبه الضريبة، وقد منحت قيادة الجيش إلى بيدرو نافارو حيث تكوّن الجيش من 15 ألف جندي، من بينهم 3 آلاف مقاتل من صقلية، واختير المالطي جويليانو أبيلا دليلا للحملة باعتباره ذا معرفة جيّدة بالمدينة[3].

غادر الأسطول مالطة بتاريخ الـ 20 جويلية سنة 1510، ووصل قبالة السواحل الطرابلسية في 24 جويلية أين نصّبت المدافع مباشرة، وبدأ قصف المدينة ثم اجتاح البحارة الإسبان شوارعها، وتمكنوا من احتلال المدينة بعد ثلاثة ساعات من المعارك الضارية، ووفق الرواية الإسبانية فقد تم تحرير 170 أسيرا مسيحيا أغلبهم من صقلية ومالطا[4].

---

[1]- أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص 111.

[2] -Robert Lambert Playfair . Handbook for Travellers in Algeria and Tunis, Algiers, Oran, Constantine, Carthage, Etc. J. Murray, 1887, p 33.

[3] -Vella Andrew P, "The Order of Malta and the defence of Tripoli 1530–1551", Melita Historica, Vol. 6, N. 4, 1975, P362.

[4] -Vella Andrew P, op.cit, pp. 362-363.

لكن عديد التقارير تثبت أن الإسبان قد أثخنوا القتل والسبي والأسر في أهل المدينة، بشكل يندى له الجبين، "فقبل احتلال طرابلس كان تعداد ساكنتها بين الـ 15,000 و20,000 نسمة، ولكن ما إن احتل الإسبان المدينة حتى قتلوا بين الثلاثة آلاف والخمسة آلاف نسمة، واستعبدوا بين الخمسة آلاف والستة آلاف طرابلسي[1].

وأما باقي المدن الجزائرية والمغاربية؛ فاختار الكثير من حكامها دفع ضريبة سنوية، مثل دلس ومستغانم وشرشال وتنس والجزائر العاصمة التي اختار قائدها منح المحتلين قلعة البينيون قبالة سواحل المدينة، وأما قادة تلمسان فوافقوا على دفع الضريبة يوم الـ 05 جوان سنة 1510م[2].

وهكذا نرى أن احتلال الإسباني ليس سوى امتداد لحروب ما يسميه الإسبان بـ "الإسترداد"، أين جعلت هاته الحروب الوازع الديني أساسا لها، وكان لهذا أثره في بشاعة الجرائم التي أوقعها المحتلون في الساكنة المحلية المعزولة، أين لم يستطع القادة الإسبان منع جنودهم المدفوعين بحماسهم الكنسي من التقتيل ضد أهل المغرب العربي.

[1] -Hartel, H et alt, The Last Great Muslim Empires, BRILL, 1997, p 138.

[2] -Robert Lambert Playfair, op.cit, p34.

المحاضرة الثالثة: المد العثماني في الحوض الغربي للمتوسط 1520-1571م

لقد بنيت الإستراتيجية العثمانية للسيطرة على البحر الأبيض المتوسط على إنشاء قواعد متقدمة في الحوض الغربي للمتوسط، ولهذا فإن أهم وأقرب منطقة له والعدو الأول لإسبانيا والعالم النصراني هي دول المغرب العربي حيث "تعود أولى الاتصالات العثمانية في الحوض الغربي للمتوسط إلى سنة 1487م، وذلك في "رسالة من سكان غرناطة إلى السلطان العثماني والملك المملوكي يطلبون فيها العون والنجدة، ولدراسة الوضع الحربي والعسكري في المنطقة أرسل السلطان أحد بحارته المدعو كمال رايس، الذي بقي في المتوسط إلى غاية سنة 1495م[1].

1- البدايات الأولى للتوسع العثماني في الحوض الغربي للمتوسط:

قاد الرايس كمال خلال الفترة التي استقر فيها بالجزء الغربي من المتوسط، عدّة عمليات انطلقت من ميناء بجاية وجزيرة جربة ضد العالم النصراني وكذا محاولاته لإنقاذ المسلمين الأندلسيين القابعين على السواحل الإسبانية[2].

وما إن فرغ العثمانيون من تسوية الخلاف الصفويين سنة 1514م، واحتلالهم لمصر سنة 1517م، حتى أصبح الحوض الغربي للمتوسط مطلبا ملحا للسياسة العثمانية.

وقد لعب الحظ دورا كبيرا في بداية التوسع غرب المتوسط، حيث استقر الأخوان عروج وخير الدين منذ سنة 1509م في جربة بتونس، ثم جيجل سنة 1514 ومن هناك بدأ الإخوة حملاتهما في التوسع على بعض المناطق الجزائرية، ففتحوا الجزائر العاصمة سنة 1516م، وجعال منها معقلا لقواتهما البحرية[3].

ليبدأ بعدها التوسع في الجهة الغربية من الجزائر، وذلك بمحاولة لفتح تلمسان سنة 1517م، وهي نفسها السنة التي توفي فيها عروج بعد استشهاده في معركة ضد الإسبان عند نهر دي سلادو[4].

---

[1] -De Jamil M et Alt, p148.

[2] - Ibid.

[3] - PlayFair, op.cit, p34.

[4]- سنتوسع أكثر في موضوع الأخوين عروج عندما نتطرق لمحاضرة الخامسة والتي تتعلق بالفتح العثماني للمغرب العربي.

أرسل خير الدين بربروسة بعدها حسين شاوش إلى الباب العالي يطلب من السلطان الموافقة على طلب انضمام الجزائر تحت اللواء العثماني سنة 1519م، حيث وافق الأخير على طلبهما سنة 1519م.

وهكذا أصبحت الجزائر أحد القواعد العثمانية المتقدمة والمهمة في الجزء الغربي من البحر المتوسط، حيث أقضت مضجع أوربا كلّها، وهاجم رياسها إيطاليا وإسبانيا وأغلب السواحل الأوروبية.

ولم يكن العثمانيون ليتفرغوا للتوسع غربا إلا بعد أن يفتحوا جزيرة رودس معقل فرسان القديس يوحنا سنة 1523م، حيث تعتبر الجزيرة قاعدة متقدمة للإسبان في الجزء الشرقي للبحر المتوسط، ويذكر ستانلي لان بول: "لقد سقطت جزيرة رودس آخر عقبة لاستكمال سيطرة الأسطول العثماني على الحوض الشرقي من البحر الأبيض المتوسط، ومن الآن وصاعدا لا توجد سفينة مسيحية آمنة بهذه المياه، فالبحريات القديمة في هذا الوقت كانت أقلّ قيمة، حيث لا توجد قوةّ تتحدى التفوق العثماني في بحر إيجة، البحر الأيوني وبحر الأدرياتيك[1].

وقد راسل السلطان العثماني البابا يعلمه أنّ القوات العثمانية أصبحت حرّة فيما يتعلق بآسيا، وأن الجزء الغربي من المتوسط سيصبح عما قريب عثمانيا، وفي المقابل حاول البابا توحيد صفوف المسيحيين لكن البنادقة حلفاء البابا أخبروا سليم الأول عن فكرة البابا، وفي غمرة تحضيرات البابا ليو العاشر، وصلت أخبار وفاة السلطان سليم الأول، حيث أعلنت الصلوات والشكر وألغيت الحملة الصليبية... لأن الجميع كان يعتقد أن سليمان القانوني رجل سلام[2].

[1] - Lane-Poole Stanley, The Story of the Barbary corsairs, New York: G.P Putnam's Sons 1890, p. 74.

[2]- قرباش بلقاسم، الأسرى الأوروبيون في الجزائر خلال عهد البايات (1671-1830م)، أطروحة دكتوراه، جامعة معسكر، 2016م، ص ص 22-23.

2- التنسيق العثماني الجزائري غرب المتوسط 1529-1538:

هناك أمران حدثا سنة 1529 مهدا لتصاعد التنسيق الجزائري العثماني في الجزء الغربي للمتوسط، الأول: هو تمكن خير الدين من تدمير قلعة البينون المقابلة لمدينة الجزائر في شهر ماي سنة 1529 الذي وفر ملجأ آمنا للسفن الجزائرية من العواصف؛ ثانيا: التوغل العثماني في شرق أوربا ومحاصرة فيينا التي كانت تمثل الحدود الشرقية للإمبراطورية الإسبانية.

إن السيطرة على البحر من قبل المسلمين، لم تكن تعني تخريب التجارة الأوروبية فقط أو تحطيم السواحل الواقعة في الجنوب؛ وإنما أصبحت تعبر عن التهديد المباشر الذي صار يمثله المسلمون للديانة المسيحية. فمع وصول العثمانيين فيينا سنة 1529 انتشرت فكرة قرب نهاية العالم في الأوساط الشعبية الأوروبية؛ حيث أنتج هذا الوضع أشكالا مختلفة من الثقافة في الأوساط الدينية والأدبية والفنية والسياسية، وقد عبر عن هذه الحالة الأديب الفلورنسي بورجيو براشيلوني (Porggio Bracciloni) في إحدى الرسائل إلى أحد أصدقائه مباشرة بعد انتشار خبر انتهاء حكم الإمبراطورية البيزنطية: "أخشى ما أخشاه عودة زمن غزوات الوندال والقوط"[1].

لقد أعقب تحطيم قلعة البينيون غارات بحرية واسعة قام بها البحارة الجزائريون، ولعل أشهرها تلك التي قادها إيدين رئيس (الملقب في الكتابات الغربية بالشيطان الضارب) وصالح رايس ضد السواحل الإسبانية؛ فعند عودة القائد العام للأسطول الإسباني من جنوة، اشتبك مع 14 سفينة كان يقودها إيدن رايس؛ لقد كانت النتيجة كارثية للأسطول الإسباني، فقد توفي بورتندو، وتم الاستيلاء على ستة سفن من أصل ثماني غاليارات ضخمة، في حين أحرقت واحدة أخرى[2].

[1]- أحمد رنيمة، المشروع العثماني والمجابهة الفكرية الأوروبية خلال القرن السادس عشر الميلادي، ملتقى التنافس الإسباني في غرب البحر المتوسط مطلع القرن 16 الميلادي، 09-10 نوفمبر 2010، كلية الآداب واللغات، جامعة الشلف، ص 05.

[2] -Emrah Safa Gürkan, Ottoman Corsairs in The Western Mediterranean and Their Place in The Ottoman Habsburg Rivalry (1505-1535), A Master's Thesis, Ankara: Bilkent University, June 2006, p95.

جاء في رسالة كتبها نائب ملك بلنسية إلى الإمبراطور بتاريخ 12 نوفمبر 1529: "لقد أعلمت جلالتكم بطريق البريد عن الحالة التي تعيش فيها المملكة، خصوصا بسبب المحن التي تصيبها من جراء العمليات والتخريبات وأعمال النهب، التي يقوم بها الأتراك أعداء عقيدتنا الكاثوليكية... إنهم أخذوا سكان القرى التابعة لبارونة برسنت Barcent وسيد هذه القرية وكل المورسكيين القاطنين بمورلة في مقاطعة أوليقا"[1].

عاتبت الإمبراطورة الإسبانية زوجها شارل الخامس، وذكرته أن ضياع قلعة البينيون غير التوازن الموجود بشمال إفريقيا؛ وأن كلا من جزيرة أيبيريا وقلاع شمال إفريقيا وبالأخص وهران وبجاية؛ أصبحتا تحت تهديد مدافع بحارة الجزائر، وأن كل سفينة أخذت منا أصبحت تشكل خطرا علينا، إضافة إلى أن هذا الانتصار جعل العديد من القراصنة الخواص ينضمون إلى صف خير الدين[2]. وقد جاء الرد الإسباني على تحطيم قلعة البينيون عشوائيا، فقد هاجم أندري دوريا شرشال بأمر من الإمبراطور شارل الخامس لكن الحملة فشلت بعد سوء التنظيم التي شهدته منذ البداية.

وقد تزامنت هذه الهجمات الجزائرية مع التوغل العثماني في شرق أوربا، ما جعلها ضربات قاسية للحكم الهابسبورغي، الذي كان يمر بأيام صعبة خاصة مع ظهور الحركات المعادية للإمبراطور شارل الخامس (Anti-Habsbourg)، "باندلاع الثورة في كل من صقلية سنة 1516، فيينا سنة 1519، فالنسيا ومايوركا 1520-1523، البيرو 1537-1542، وثورة المجالس البلدية أو ثورة الكاستيل 1520[3].

وقام خير الدين بعد هذا الانتصار بإرسال سفينة محملة بالهدايا إلى السلطان العثماني، يعلمه فيها بتحرير قلعة البنيون، وكان رد السلطان العثماني أن سلمه سفينة من

[1]- المنور مروش، دراسات عن الجزائر في العهد العثماني "القرصنة، الواقع والأساطير"، ج2، دار القصبة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009، ص 89.

[2] -Emrah Safa Gürkan, op.cit, pp 95-96.

[3] -Aurelio Espinosa, The Empire of the Cities, Emperor Charles V, the Comunero Revolt, and the Transformation of the Spanish System, Vol 137, Leiden: Brill, 2009, p65.

نوع قادرغة ذات العشرين مقعدا مزودة بمدافع متطورة[1]. وكان السلطان يعلم جيدا أن المسافة بين الإمبراطوريتين تمنع من حدوث توسع ناجح في الجزء الغربي من المتوسط، إلا في حالة استخدام بحراته المتواجدين بشمال إفريقيا.

وخلال هذه الفترة بدأ التقارب العثماني الفرنسي يطفو على الواجهة الدولية آنذاك؛ ففي سنة 1534 عين أول قنصل فرنسي بطريقة رسمية في العاصمة إسطنبول، جين دولفورات (Jean De La Foret) وبعودته إلى فرنسا في أفريل من سنة 1534، فتحت الأبواب لتصاعد التأثير الفرنسي في البلاط العثماني[2].

ومما زاد من تأزم موقف إسبانيا هو التحالف الرسمي بين الإمبراطورية العثمانية وفرنسا سنة 1536، فيما عرف بمعاهدة الامتيازات والتي تعتبر أول اتحاد ديبلوماسي يقوم على مبدأ غير إيديولوجي بين دولة مسيحية وأخرى إسلامية. وقد استغل العثمانيون الصراعات القائمة بين الأمراء الألمان وشارل الخامس؛ لدعم مركزهم في أوربا الغربية.

كما استطاع العثمانيون من خلال هذه المعاهدة، ضمان القوة الفرنسية إلى جانبهم، ومنع أي تحالف فرنسي- إسباني قد ينهي التواجد العثماني غرب المتوسط، ليس هذا وفقط بل استفاد العثمانيون من الموانئ الفرنسية لاستخدامها كقواعد في هجماتهم ضد المدن الإيطالية وكذا في حربهم مع الإسبان.

ومن جانب آخر أنتجت المعاهدة العثمانية الفرنسية دورا جديدا للأسطول الجزائري الذي سيكون مطالبا في المستقبل بتنفيذ هجمات متزايدة على المواقع الإسبانية الساحلية، بطلب من فرنسا التي لم تكن حتى تلك الفترة تملك قوة بحرية تمكنها من مجابهة إسبانيا.

[1]- مذكرات خير الدين بربروس، المرجع السابق، ص 144.

[2] -Charlesa Frazee, op.cit., p. 27.

3- السيطرة البحرية العثمانية 1538-1571:

استمر البابا بول الثالث في إلحاحه على عقد معاهدة سلام بين الفرنسيين والإسبان؛ واستمرت هذه المفاوضات من سنة 1537-1538، وكل المحاولات بإحداث التقارب بين الطرفين كان مصيرها الفشل "وقد جرى آخر لقاء بين الطرفين في 11 جانفي 1538 طالب فيه الفرنسيون بهدنة تفوق السنتين، في حين أن الإمبراطور ظل ملحا على أن الهدنة يجب أن تكون في فترة زمنية قصيرة... ورغم محاولات ممثل البابا في إحداث توافق بين الطرفين؛ إلا أنه كان يعلم أن الوصول إلى اتفاق يبدو مستحيلا، ما دام الفرنسيون متشبثين بالحصول على مدينة ميلان"[1].

بعد عودته من تونس سنة 1535، عيّن خير الدين كقائد عام للأسطول العثماني، كما أنه استطاع أن يحتفظ بلقبه كحاكم عام على إفريقيا، خلفا لإبراهيم باشا الذي كان يعمل فيما مضى على منح امتيازات واسعة للبنادقة موطن والدته الأصلي؛ لكن مع وصول خير الدين إلى القيادة، تغيرت النظرة إلى البنادقة، فخير الدين كان يرغب في جعل البحر الأدرياتيكي بحرا إسلامياً[2].

ويذكر خير الدين أنه تمكن من فتح ثمانية وعشرين جزيرة كانت خاضعة لجمهورية البندقية وجعل في كل منها حامية[3]. كل الظروف أصبحت تنذر بالحرب؛ فهذه الأحداث دفعت البابا كليمنت الثالث إلى حشد تحالف مسيحي، وقد أعلن عن التحالف المقدس بروما في فيفري 1538[4].

وفي ماي 1538 أعلن العثمانيون الحرب على البنادقة، وقد انضمت إلى القوات العثمانية سرية بحرية كان يقودها كلّ من صالح رايس ودرغوث رايس؛ وكان دور بحارة الجزائر بارزا في هذه المعركة فيقول خير الدين: "دعوت رياس البحر إلى سفينة

[1] -Hayward Keniston, "Peace Negotiations Between Charle 5 and Francis 1, (1537-1538), Proceeding of The Americain", Philosophical Society, Vol 102, N°2, (April 1985), p146.

[2] -Lane-Poole Stanley, op.cit, p95.

[3]- مذكرات خير الدين بربروس، المرجع السابق، ص 182.

[4] - Charlesa, Frazee, op.cit., p. 40.

القيادة وتشاورت معهم جميعا، وبالرغم من الشجاعة الشديدة التي كان يتحلى بها دورغوث رايس، والذكاء الحاد الذي اشتهر به صالح رايس إلا أنهما أشارا علي بأن لا نغادر الخليج"[1].

إن الانتصار الذي حققه الذي حققه خير الدين في لابريفيزا ضد عدوه أندري دوريا، سيدعم سيطرة العثمانيين على البحر المتوسط خلال الثلاثين سنة القادمة، أي إلى غاية معركة ليبانتو 1571. "وفي أكتوبر 1540 عقد العثمانيون والبنادقة معاهدة سالم جديدة، كرست سيطرة العثمانيين على بيلوبونيس في اليونان، في حين استعاد البنادقة حقوقهم التجارية على الأراضي العثمانية"[2].

لقد خلفت الهزيمة التي مني بها الإسبان في المعركة، مساسا بالهيبة الإسبانية في المتوسط، ولهذا أصبح شارلكان يفكر بشكل جدي، القيام بعمل عسكري يسترجع به الهيبة الإسبانية المفقودة، وكان الحل الوحيد هو استهداف الجزائر، القاعدة العثمانية المتقدمة والأكثر أهمية في الصراع العثماني الإسباني.

وتخوفا من أن تفشل الحملة أجرى شارل الخامس، اتصالات مع خير الدين يطلب منه العمل تحت رايته، على أن يلقبه حاكما على كل إفريقيا، وقد استغل خير الدين الفرصة لكشف الخطة التي يود أن يدخل بها شارل الخامس إلى الجزائر.

أما عن السبب المباشر لهذه الحملة فيذكر مخطوط المحكمة، أن سببها يرجع إلى أسر سفينة إسبانية من طرف علج علي، فاشتكى هؤلاء لملكهم من المضايقات المستمرة من طرف القراصنة وأنه إن لم يتدخل فأنهم سيعلنون ولاءهم للأتراك، ومما لا شك فيه فإن سبب الحملة يتجاوز مجرد أسر سفينة.

وبعد تجهيز الحملة، بدأت معاناتها بإضاعة الكثير من الوقت في جزر البليار، ولم يصل الأسطول الإسباني الجزائر إلا بتاريخ 19 أكتوبر 1541، يضم خمسمائة

[1] -Lane-Poole Stanley, op.cit, p95.
[2] - Charlesa, Frazee, op.cit., p. 40.

وستة عشر سفينة شراعية، 65 غليارة كبيرة، محملة باثني عشر ألف بحار، وثلاثة وعشرين ألف وستمائة مقاتل. إن الحملة كانت تعتبر إحدى أعظم الحملات البحرية خلال القرن السادس عشر... فقد ضمت أيضا مغامرين ألمان وإيطاليين، كما أرسل البابا ابن أخيه كولونا، وقامت منظمة مالطا بإرسال مائة وأربعين من أفضل مقاتليها.

تبدو الحملة ضخمة أكثر من اللازم لتوجه إلى مدينة، كانت دفاعاتها مكونة من ألف وخمسمائة تركي وأندلسي مدربين على فنون الحرب، وخمسة آلاف من الأهالي القادرين على حمل السلاح[1]. إن نظرة سريعة إلى الحملة تثبت أن العامل النفسي كان له التأثير الأبرز في حشد هذا العدد العائل من العدة، فالانكسارات المستمرة أمام الأتراك جعلت شارلكان يفقد الثقة في هزمهم. ويربط الانتصار في المعركة بالكمية.

في هذه المرة أيضا لم يكن الإسبان أكثر حظا من المرات السابقة، فالعاصفة التي ضربت في 24 أكتوبر، دمرت أغلب القوات الإسبانية، إضافة إلى الهجمات التي كان ينفذها الجزائريون ضد المعسكر العثماني على الشاطئ، ما دفع شارل الخامس إلى الانسحاب. هذه الهزيمة جعلت شارلكان يعتزل الحياة السياسية ويتفرغ للعبادة في إحدى الأديرة.

تحصل الجزائريون على غنائم ضخمة تركها الإسبان في المكان... كما تمكنوا من رفع عدد هائل من السفن الصغيرة وبعض الغليارات الكبيرة، وانتشلوا حوالي خمسمائة قطعة مدفعية من البرونز، ومقدار كبير من الأسلحة والتجهيزات المختلفة الأنواع، إضافة إلى العدد الهائل من الأسرى[2].

هذه الظروف شجعت الفرنسيين على طلب المساعدة من العثمانيين لاستعادة نيس، وقد رحب الفرنسيون بخير الدين الذي نزل في مرسيليا، ومنح له ميناء طولون لقضاء الشتاء به، وفي هذا الصدد يذكر لان بول: "لقد بالغ الفرنسيون في الترحيب بخير الدين؛ لقد انخفضت رايتنا المسيحية لتعوض بالهلال الإسلامي"[3].

[1] -Walsin Esterthazy, op.cit., p. 146.
[2] - Ibid.
[3] - Lane-Poole Stanley, op.cit., p. 95.

عبرت هذه الحملة عن تصاعد التأثير الفرنسي في الباب العالي، وأن أغلب الغارات البحرية المستقبلية على السواحل الإسبانية، ستكون بطلب من الفرنسيين، وما يؤكد التأثير الفرنسي؛ قضية عزل حسن ابن خير الدين، الذي رفض توجيه حملة ضد السواحل الإسبانية بطلب من فرنسوا الأول، ورغم أن الباب العالي ادعى أن قضية عزل حسن آغا ترتبط بسوء الجوار مع إخوانه المغاربة، إلا أن كل الدلائل تشير إلى أن عزل حاكم الجزائر جاء بعد إلحاح السفير الفرنسي في اسطنبول.

وفي سنة 1552، أرسل هنري الثاني الفارس ألبيس إلى الجزائر، يطلب من صالح رايس أن ينسق مع القوات الفرنسية لمهاجمة السواحل الإسبانية، وقد جاء رد صالح رايس سريعا وخرج من ميناء الجزائر في جوان 1553؛ مع أربعين سفينة حربية ونزل في مايوركة فهاجم أريافها وألحق أضرارا كبيرة بحامية ماهون[1].

إن المشاكل الدينية التي كانت تمر بها أوربا استغلها العثمانيون، لدعم موقفهم في الجزء الغربي من المتوسط، لقد كانت الدولة العثمانية تمثل الجنة بالنسبة للمضطهدين دينيا، فمثلا: في أواسط القرن السابع عشر؛ مجموعة من الهوغوين المطرودون من فرنسا توجهوا للعيش في اسطنبول، والعديد من المواطنين التابعين للكنيسة الأنغليكانية هربوا من الأراضي الانجليزية، وحتى الكويكر والأنبابتيست، وحتى المسيحيون الكاثوليك والقديسين استقروا على الأراضي العثمانية[2]. وقد اعتبر لوثر أن الرب أرسل الدولة العثمانية كإشارة لإيقاظ المسيحيين من سباتهم؛ وذهب أحد البروتستانت إلى أبعد من ذلك، عندما قال أن الله يفضل العثمانيين[3].

بعد هزمهم الأسطول الإسباني في طرابلس سنة 1560، بدأ العثمانيون يفكرون في مهاجمة مالطة واستعادتها من فرسان القديس يوحنا، ومنذ سنة 1564 بدأ التحضير

[1] -H.D.de Grammont, op.cit, p.79.

[2] -Daniel Goffman, The Ottoman Empire and Early Modern Europe, New York: Cambridge University Press 2004, p.111.

[3] -M. Holt, The Cambridge History Of Islam: The Central Islamic Lands From Pre-Islamic Times to The First World War, Vol IA, Cambridge University Press, 1970, p.329.

للحملة، وكان الأوربيون يعلمون عن هذه التحضيرات، لكنهم لم يكونوا يعلمون بالمكان المستهدف بالضبط أما فرسان مالطة فكانوا متأكدين من أن جزيرتهم هي الهدف التالي، ولهذا استعدوا على الرغم من نقص الدعم من أوروبا التي كانت مشغولة بتسوية شؤونها الداخلية.

ويذكر ديغرامون أن القوات العثمانية كانت تتألف من مائة وخمسين غليارة كبيرة، تحمل ثلاثين ألف جندي[1]. أما الفرسان فقد كانوا تحت قيادة عظيمهم الوحيد دي الفاليت الذي استعد للدفاع عن قلعته بمهارة، وسيكون من الحمق أن يحاول المرء قص قصة حصار دام خمسة أشهر، فكل من المهاجمين والمدافعين أظهروا بطولة عظيمة... إن قصة الحصار قد انتقلت إلى أوروبا في كثير من الخرائط والكتيبات، التي وزعت بطريقة شعبية ما تزال تشهد على ذلك الاهتمام الذي أثاره الدفع البطولي[2].

لقد خلف الحصار العثماني للجزيرة خسائر هائلة في الصفوف العثمانية، فقد توفي وجرح حوالي ستة آلاف مقاتل، كما شهد الحصار وفاة أشجع القادة العثمانيين درغوث باشا. ورافق الجثمان إلى طرابلس حسن باشا القائد العام للحملة، وعين مكانه على الجزائر علج علي.

وبعد عامين على هذه الأحداث، وردت برقية سرية من الباب العالي، تعلم فيها القيادة العثمانية حاكم الجزائر من هجوم محتمل سينفذه الإسبان ضد الجزائر[3]، وفعلا ففي سنة 1567 حاول خوان فاسكون إحراق الأسطول الجزائري المتمركز في الميناء، لكن الحرّاس تفطنوا له، وتمت ملاحقته والقبض عليه وإعدامه.

كانت قبرص تمثل عائقا للدولة العثمانية للربط بين ولاياتها في المشرق، وكان لا بد من إسقاطها ولهذا اتهم العثمانيون البحارة القبارصة بالتعرض للسواحل السورية، وكان هذا هو السبب المباشر للحملة، التي قادها بيالي باشا ضد قبرص، تمكن من خلالها الاستيلاء على الجزيرة في سبتمبر 1570.

---

[1] - HD. De Grammont, op.cit., p.99.

[2]- جون ب. وولف، المرجع السابق، ص 80.

[3] -Yusuf Sariny, Osmanli belgeleride Cezayir, Ankara, Osmanlı Arşivi Daire Başkanlığı, 2010, p.12.

لم يتقبل البنادقة استيلاء العثمانيين على جزيرة قبرص، وبتاريخ 28 ماي 1570 أعلن في كنيسة سانت بيار بروما، عن تحقيق الاتحاد بين إسبانيا، إيطاليا، وألمانيا، ضد العثمانيين، واجتمعت سفن جنوة والبندقية في ماسينا[1].

وقد كانت القوات العثمانية تحت قيادة بورتو باشا وزاده باشا وحاكم الجزائر علج علي، ورغم أن كل البراهين كانت تشير إلى انتصار العثمانيين، إلا أنهم انهزموا نظرا للتزمت الذي أبداه قادة الجيش البري ورفضهم مقترح علج علي، الذي كان يقضي بعدم الدخول في اشتباك قرب الساحل يصعب عملية المناورة أما في حالة بقاء الأسطول قرب الساحل، فيجب أن تقصف مدافع القلاع الساحلية الأسطول المسيحي ثم تدخل البحرية العثمانية في اشتباكات مع العدو.

لقد كانت الخسائر العثمانية ضخمة جدا، فقد أبيد أغلب الأسطول العثماني، ولم ينجو من المعركة سوى الأسطول الجزائري المشارك تحت قيادة علج علي، ليس هذا وفقط بل حطم كل الأسطول المالطي الذي كان متمركزا على الجناح الأيسر. استقبل علج علي استقبال الأبطال من قبل السلطان العثماني، وعين قائدا عاما للبحرية العثمانية.

يرى الكثير من المؤرخين أن معركة ليبانتو، كانت ذا نتائج نفسية أكثر منها مادية؛ فقد حطمت العقدة النفسية التي كان يعاني منها المسيحيون عند ملاقاتهم الجيش العثماني، كما أزالت الفكرة القائلة بأن الجيش العثماني جيش لا يقهر.

وما إن وصلت الأخبار إلى البندقية بانتصار الحلف المسيحي، حتى دقت الأجراس في مختلف أنحاء المدينة، وأعلنت ثلاثة أيام للاحتفالات بالنصر، واعتلى قوس النصر برج المسرح الروماني، في حين راودت الأحلام البابا بيوس الخامس؛ بتوجيه حملة صليبية يتم من خلالها استعادة فلسطين. ومهما يكن؛ فإن انتصار ليبانتوا قد ضخمه المسيحيون أكثر من اللازم، ففي الو قت الذي استطاع الأتراك بناء أسطول أكثر قوة من السابق في مدة لا تتجاوز السنة، كان البنادقة لا يزالون منتشين بانتصاراتهم[2].

[1] -Mercier Ernest, Histoire de l'Afrique septentrionale (Berberie) depuis les temps les plus reculés, jusqu'à la conquête française (1830), T2, Paris: Ernest Lourex Editeur, 1868, p.111.

[2] -28..Charlesa. Frazee, op.cit, p

المحاضرة الرابعة: ظروف إلحاق الدول المغاربية (الجزائر، طرابلس، تونس) بالدولة العثمانية.

1- أصل الإخوة بربروسة:

من بين الجزر التي فتحها الأتراك في حملتهم على جزر بحر إيجة مدينة مدلي[1] سنة 1475، ولكي يثبّت الأتراك أقدامهم في تلك المنطقة أمر السلطان "محمد الفاتح" طائفة من جنده بأن تستقر نهائيا في الجزيرة[2]، حيث تزوّج الشاب يعقوب الروملي الذي كان فارسا سباهيا[3] كاتالينا أحد بنات المدينة وهي ابنة قس أرثودوكسي يوناني[4] فأنجبت له أربعة أطفال هم إسحاق وعروج وخير الدين وإلياس، وهو ما ذهب إليه ماتاي والأب دان[5]، في حين يرى سفات سوجك وغيره من المؤرخين الأتراك الحاليين المختصين في الدراسات العثمانية إلى ترجيح كون الإخوة بربروسة من أصل إسلامي[6]، أما محمد صلابي فيقول: "يرجع أصل الأخوين المجاهدين إلى الأتراك المسلمين"[7].

زاول والدهم مهنة الفخار[8]، وازدهرت صناعة يعقوب الخزفية فرأى أن يتوسع بشراء سفينة تحمل الأواني التي يصنعها إلى الجزر القريبة من جزيرة ميدلي، وأسند مهمة قيادتها إلى اثنين من أبنائه، هما عروج وإلياس وكلف الخضر وإسحاق لصناعة الخزف، وقد تعمد يعقوب هذا التقسيم تنفيذا لحكمة تعلمها في الجيش والقائلة بوجوب

---

[1]- تذكر غزوات أن جزيرة ميدلي فتحت سنة 1462، أما بعض المصادر فتؤكد أن فتحها كان سنة 1457.

[2]- مبارك الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، الجزء الثالث، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، 1964، ص 2.

[3]- السباهية : هي مرادف للصبايحية، وهي فرقة الفرسان التي كانت تجندها الدولة العثمانية مقابل امتيازات معينة.

[4] -Fray Diego De Haedo, Histoire des Rois d'Alger, Traduit par H.D. De Grammont, Adolphe Jordan, Alger,1881, p3.

[5] -A. Mattei, Protestation contre détracteur du système administratif suivi actuellement en Algérie, E. Denni Libraire éditeur, Paris, 1869, p23.

- R.P. Pierre Dan, Histoire de barbarie et de ses corsaires des royaume et des villes d'Alger, de Tunis, de Salé, et de Tripoli, Pierre Rocolet, Imprimeur & Libraire ordinaire du Roi, seconde édition, Paris,1646, p19.

[6]- المنور مروش، دراسات عن الجزائر في العهد العثماني" القرصنة، الواقع، الأساطير"، ج2، دار القصبة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009، ص 70.

[7]- علي محمد محمد صلابي، الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط، دار التوزيع والنشر الإسلامية، 1999م، ص.206.

[8] -H. D. de Grammont, op.cit, p20.

الجمع بين الاندفاع والتروي، ولما كان كلّ من خضر وعروج قد اشتهروا بالاندفاع فقد فصل بينهما[1].

ولكن وفي إحدى الرحلات التجارية لعروج وإلياس، تعرضا لهجوم من قبل فرسان رودس، وكان هؤلاء الفرسان يمارسون أعمال السلب والنهب وغدوا قطاعا للطرق البحرية، في وقت لم يكن هناك قانون ينظم أعمال البحار، وكان القويّ يفرض القانون الذي يريده ويرغبه على الضعيف[2]، وبهذا أصبح عبدا لاثنين من عظماء المدينة[3].

وقد استطاع عروج أثناء سجنه من أن يتقن لغة الفرنك Franque، وأن يستوعبها بسهولة، كما استطاع أن يجذب كبار الجزيرة بطيبته، والتقى بأحد تجار الجزيرة الذي وعده بالمساعدة[4]، غير أن كل محاولات تحريره قد باءت بالفشل، ولهذا لم لم يبقى أمام عروج سوى حل واحد ألا وهو الفرار أثناء اشتغاله مجدّفا على السفن الرودسية.

وفعلا استطاع عروج الفرار في النهاية مستغلا إحدى العواصف التي اعترضت سفينتهم، أثناء نقلها بعثة من الأسرى المكلفين بتجديف سفينة كانت تقل جمعا من الأسرى المسلمين افتداهم السلطان قرقود أخو سليم الأول[5].

توجه عروج إلى مدينة أنضاليا، حيث تعرف على رجل اسمه "علي رايس"، فجعله رفيقا له وذهب معه إلى مصر حيث أسندت له مهمة قيادة مراكب بحرية، مخصصة لنقل الخشب اللاّزم لصنع السفن، لكنه اصطدم بقراصنة جنوة فعاد إلى أنضالية[6].

---

[1]- مبارك الميلي، ج3، المرجع السّابق، ص32.

[2]- عزيز سامح ألتر، الأتراك في إفريقيا الشمالية، تر. محمد علي عامر، دار النهضة العربية، بيروت، 1989م، ص28.

[3]- مبارك الميلي، ج3، المرجع السّابق، ص33.

[4] - S. Rang, F. Denis, Fondation de la régence d'Alger Histoire de Barbaresque, Tome1, J. J. Ange éditeur, Paris,1837, pp. 4-5.

[5]- مبارك الميلي، ج3، المرجع السّابق، ص33.

[6]- مبارك الميلي، ج3، المرجع نفسه، ص 34.

وبعد هذا جاء عروج إلى مانيسا واجتمع بالسلطان قرقود وتسلم منه سفينتين حربتين كهدية، أين كان قرقود يفكر في تأسيس أسطول القراصنة (الصاعقة البحريين)، وعندما مثل عروج بين يدي السلطان قرقود ليشكره، تساءل عن سبب عدم ذهابه إلى غرب البحر الأبيض، وأخبره بأن المسيحيين هناك يستولون على المسلمين، وأوصاه بالذهاب ومشاهدة الوضع شخصيا، وأن يسير في أثر كمال رئيس، فأذعن عروج للأوامر وذهب بسفينتين إلى مياه إيطاليا الجنوبية، وضرب السفن الإسبانية والبندقية وعاد إلى خليج أزمير[1].

2- الإخوة بربروسة في الجزائر وتونس:

كان خير الدين يتحين الفرصة المواتية لهجرة صناعة الفخار، والارتماء في أحضان المغامرة، ووجد هذه الفرصة عندما اندلعت نار الحرب بين السلطان سليم الأول وأخيه قرقود خان... أين فرّ نحو سواحل المغرب العربي أين التقى هناك بأخيه في جزيرة جربة بتونس[2].

أما عن تاريخ وصول الأخوين، فنجد أن أغلب المراجع التركية تذكر أنهما وصلا سواحل المغرب العربي سنة 1512م والبعض الآخر يذكر سنة 1513، وهي نفسها سنة استتباب السلطة لسليم الأول بعد إعدامه لشقيقه قرقود، حيث أن الأخوين كانا مواليين للأمير الأخير، ما دفعهما للفرار نحو سواحل المغرب خوفا على حياتهما، أما المصادر الأوروبية فتذكر أن وصول الأخوين إلى سواحل تونس يرجع لسنة 1504م، وأما ديغرامون فيؤكد أن قدموهما يعود إلى سنة 1510م، ولكن عند تحليلنا للأوضاع نجد أنه من غير المنطقي أن يكون وصولهما سنة 1504م، ويقوما بأول محاولة لفتح بجاية سنة 1512، ولهذا فمن المحتمل أن يكون وصولهما إلى سواحل المغرب الإسلامي بين سنتي 1510-1512.

[1]- يلماز أوزوتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ج1، ترجمة عدنان محمود سلمان، مراجعة وتنقيح: محمود الأنصاري، منشورات مؤسسة فيصل للتمويل، تركيا، 1988، ص243.

[2]- مبارك الميلي، ج3، المرجع السّابق، ص34.

اتفق الأخوان بعدها مع سلطان تونس[1] الحفصي على دفع العشر "dàme" مقابل السماح لهم بدخول ميناء المملكة وشراء ما يلزم من مؤن لممارسة نشاطهما[2]، ويذكر خير الدين أنهما اتفقا مع السلطان الحفصي على دفع الثمن من الغنائم التي يتحصلون عليها من أعمالهما البحرية مقابل أن يبيعا غنائمهما على الأسواق التونسية ومكان يجعلاه ملاذا لسفنهما ومركزا للإقامة[3].

فوافق بأن منحهما جزيرة جربة، التي جعلا منها قلعة حصينة وقاعدة لانطلاق حملاتهما البحرية التي ما فتئوا يمارسونها[4]. وبعد أيام قليلة من تحالفه مع ملك تونس، تمكن عروج من أسر غليارتين تعودان للبابا جوليووس الثاني[5].

لقد أخذت هذه الحادثة صدى واسعا بعد أن أصبح البابا نفسه مهددا من قبل الرياس الأتراك، ومنذ اللّحظة ازدادت شعبية الأخوين لدى الأوساط الشعبية المسلمة في شمال إفريقيا، حيث يقول دي غرامون: "خلال السنوات الأولى من القرن السادس عشر، تحدثت شعوب الساحل المتوسط عن الإخوة القراصنة الذين أصبحوا مشهورين جدا"[6]، ويقول ماتاي في وصفه للأخوين: "لقد بدأوا القرصنة ضد كل الجنوب الأوربي، فنهبو ا السواحل وأسروا السفن واختطفوا الرجال والنساء والأطفال، وكدسوا ثروة كبيرة حيث كانت بضع سنوات كافية ليصبحوا أكبر إرهاب ضد أوربا الساحلية"[7].

إن هذه الأوصاف كانت كافية لترسم نموذجا مثاليا عن المنقذ المحتمل لمناطق شمال إفريقيا، فقد كان سكان هذه المناطق يسمعون عن أخبارهم ويتناقلونها بينهم، وفي المقابل كانت الجماهير الأوروبية تكون صورة سيئة عما يسمونهم "قراصنة الساحل البربري".

---

[1]- سلطان تونس: موالي محمد الحفصي.

[2] -Fray Diego De Haedo, op.cit, p5.

[3]- خير الدين، المصدر السابق، ص46.

[4]- ياتسيك ماخوفسكي، تاريخ القرصنة في العالم، تر. أنور محمد إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2008، ص 88.

[5] -Fray Diego De Haedo, op.cit, p.6.

[6] -H.D. De Grammont, op.cit, p.20.

[7] -A. Mattei, op.cit, p.23

وقد بالغ مخطوط الغزوات في تضخيم مآثرهم البحرية، وسارت على منوالها المصادر الأوروبية في القرن السادس عشر، التي ساهمت كثيرا في صنع أسطورتهم، لكن في هذا المجال تعتبر الأساطير نفسها عنصرا مهما لا يجوز إهماله، ذلك أن المجد الذي فتح لهم طريق الحكم هو نتيجة مشتركة لمآثرهم الحقيقية، وللأصداء المضخمة التي راجت بين الجماهير[1].

وقد مكنت أعمال عروج البحرية من أن يكون لديه أسطولا بلغ عدده سنة 1509 حوالي 8 سفن، بالإضافة إلى سفن أخرى كان يقودها قراصنة آخرون، جاءوا بدورهم إلى الحوض الغربي للبحر المتوسط وانضموا إليه[2].

ولعل أول اتصال لعروج بالجزائر كان سنة 1512، حين طلب منه أهالي بجاية مساعدتهم لطرد الإسبان واستعادة مدينتهم المحتلة منذ عامين، هذه الدعوة سوف تحدث منعرجا كبيرا في التطور السياسي للجزائر والمغرب[3]، حيث استنجد بهما حاكم قسنطينة قسنطينة أبا بكر لطرد الجيش الإسباني المحتل[4]. ويقول دي غرامون: "وفعلا لبى الأخوان عروج وخير الدين النداء وحاصرا المدينة عام 1512، وكان بحوزتهم 12 باخرة مزودة بالمدفعية وحوالي ألف تركي"[5].

لكن عروج أصيب في يده بقذيفة من المدفعية[6]، فأعطى خير الدين أوامره برفع الحصار عن المدينة، وأرسل جمعا من رجاله لحمل عروج إلى تونس والذين أتوا به فاقدا للوعي إلى هناك[7]، حيث بترت يده[8].

---

[1]- المنور مروش، المرجع السّابق، ص. 70.

[2]- صالح عباد، الجزائر خلال الحكم التركي 1514-1830، دار هومة، الجزائر، 2012، ص 44.

[3]- المرجع نفسه، ص نفسها.

[4] -Ernest Mercier, op.cit, p.427.

[5] - H.D .DE Grammont, op. cit, p.21.

[6] - J. J. E. Ray, Histoire de l'Algérie (depuis les temps les plus anciens jusqu'à nous jours), jours), Tours, Ad Maure Cie,1859, p.101.

[7]- مبارك الميلي، ج،3 المرجع السّابق، ص.36.

[8]- خير الدين، مصدر سابق، ص.53.

وفي سنة 1514 تعافى عروج من إصابته وقام رفقة خير بإعادة تنظيم أنفسهم من أجل السيطرة على جيجل التي كان يحكمها الجنويين وعادوا مع المسلمين وسكان القبائل الريفية، وفي أقل من يوم سلّم حكـامها المكان[1].

وهناك اختلاف إذا ما كان الهجوم الثاني على بجاية تم قبل أو بعد الاستيلاء على جيجل، وهنا يذكر لامي: "لقد كانت المحاولة الثانية على بجاية فاشلة كذلك وبهذا سيحولان اهتمامهما نحو الشرق ويتوقفان عند جيجل"[2]، أما صالح عباد فيؤكد بقوله: "أما نحن فنصل إلى الرواية الثانية التي تقول أن جيجل أصبحت بيد عروج قبل المحاولة الثانية في بجاية"[3].

ويمكنني أن أرجح الرواية الثانية، وهذا لأن خير الدين في مذكراته يذكر أنه بعد محاولته على بجاية عاد إلى جيجل، ومن المحتمل أن يكون الأخوين قد دخلا جيجل وجعلا منها قاعدة لهجماتهم بجاية.

كان الهجوم على جيجل برا وبحرا، فبعد قصف المدينة من البحر، أنزل عروج قواته البحرية إلى البر أين التقى بالقوات التي يقودها أخوه خير الدين وأحمد بن القاضي، أين تمكنوا من السيطرة على المدينة بكل سهولة، وغنموا منها الكثير حيث بلغ عدد الأسرى حوالي 600 أسير[4].

وما إن فرغوا من جيجل حتى وجها قواتهم نحو بجاية يأملان السيطرة عليها، رفقة الزعيم أحمد بن القاضي الذي كان على رأس 20.000 ألف من البربر، غير أن هاته الحملة فشلت مثل سابقتها، وذلك لتخلي السلطان الحفصي في تونس عنهما، بعد أن طلب عروج الدعم منه لنفاذ الذخيرة، وربما يعود تماطل هذا السلطان إلى تخوفه من

[1] -J.J.E. Ray, op.cit, p.102.

[2] -Lamé Fleuvry, Histoire de l'Algérie racontée à la jeunesse, Allouard libraire, Paris, 1848, p.125.

[3]- صالح عباد، المرجع السّابق، ص 45.

[4]- المنور مروش، المرجع السّابق، ص. 87.

الأخوين وما سينجر عنه وقوع بجاية في أيديهما، إضافة إلى عودة القبائل الريفية لزراعة الحقول بعد أن استيأست من الحصار الذي دام 3 أشهر.

وهكذا انسحب الأخوان في نهاية الأمر إلى جيجل التي اتخذا منها قاعدة لعملياتهما البحرية[1]، لتصبح المدينة الفقيرة غنية وعظيمة بسبب الغنائم التي اكتظت بها[2].

لقد كانت الرسائل تأتي تبعا للأخوين لأجل تحرير مدينة الجزائر العاصمة، حيث يقول خير الدين: "لما كنت مع أخي في مدينة جيجل وصلت وفود عديدة من المدن الجزائرية، وكان أهمها وفد الجزائر التي كانت تمثل مركز البلاد، وكان الأهالي يشكون ظلم الإسبان ويرجون تدخلنا لإنقاذهم"[3].

خرج عروج في خمسمائة بحّار إلى مدينة الجزائر تاركا وراءه خير الدين على جيجل في جانفي سنة 1516، هي الفترة التي تغير فيها الحكم في إسبانيا بوفاة الملك الكاثوليكي فرديناند، الذي خلفه حاكم شاب سيعرف فيما بعد بشارلكان[4]. ويؤكد لوجيي دوطاسي أن جيش البحرية تكون من ثمانية عشر غليارة وثلاثين سفينة، في حين قام عروج بالسير برا مع الأتراك والأندلسيين[5].

فاحتل مدينة شرشال وترك فيها حامية لحراستها، ومن ثم عاد إلى مدينة الجزائر[6]. استقبل عروج في مدينة الجزائر بحفاوة بالغة، وأسكنه سالم التومي في قصره، حيث بدأ من هناك في قصف قلعة البينيون، إلا أنه وبعد عشرين يوما من القصف لم يتمكن من تخريب قلعة البينيون التي تحصن بها الإسبان بسب ضعف مدفعيته، فعبر الناس عن خيبة أملهم فيه، كما عبر عن ذلك سالم التومي الذي وجد صفه

[1] -Lamé Fleuvry, op.cit, p. 126.

[2] -Fray Diego de Haedo, Topographie et Histoire générale d'Alger, Traduit par Mounreaut, Berbrugger1870, p.20.

[3]- خير الدين، مصدر سابق، ص .74.

[4] -Lamé Fleuvry, op.cit, p.126.

[5] -Laugier De Tassy, Histoire de Royaume d'Alger Avec l'État présent de son gouvernement, de ses forces de terre et de mer & de ses Revenus, Police, Justice Politique & commerce, Henri du Sauzet, Amsterdam,1837, p10.

[6]- عزيز سامح ألتر، المرجع السّابق، ص ص. 50-51.

يتدعم فلجأ عروج إلى اغتياله، حسب المؤرخ جوليان فإن مؤامرة حيكت بين الثعالبة والإسبان وأهل الجزائر للتخلص من عروج وقراصنته ففرض عروج سيطرته مدعوما بالأتراك وأهالي جيجل[1].

وهكذا ساء موقف عروج، وبدأت صورته المثالية التي تغنت بها الساكنة تتراجع تدريجيا، خاصة مع عبث الجنود الأتراك في المدينة وفسادهم أين هاجموا على الأرباض المحيطة بها، مما ضاعف سخط السكان ضد عروج، ففكروا في الاستنجاد بالإسبان عن طريق حاكم معقل الجزيرة المقابلة لمدينة الجزائر، الذي الحين أرسل وفدا إلى إسبانيا يستنجدها ضد عروج، وأيده كل من شيخ تنس وحاكم وهران، وفي هذه الأثناء كان عروج يوالي قصف معقل الجزيرة بالمدفعية لكن من غير أن يجبره على الاستسلام لأن المعقل ورغم انقطاع التموين عنه من مدينة الجزائر، إلا أنه كان يتزود من جزر البليار[2] حيث أرى عروج في استعادة قلعة البينيون تعزيزاً لصفه[3].

في خريف 1516، قرر الكاردينال كسيميناس إرسال قوة بحرية مكونة من ثلاثين سفينة، ومن ثلاثة آلاف جندي أو أكثر، تحت قيادة دييغو دو فيرا، الأسطول رسا في الجزائر في 30 سبتمبر 1516م، بالقرب من الشرقية قليلا، وتم الإنزال في اليوم الموالي قرب واد مغاسل، حيث أنه ورغم نصائح حاكم البينيون نيكول دوكانت، قام الجنرال بالهجوم بتهور دون أي تدبر[4].

وبعد عدّة اشتباكات أصبح الوضع سيئا جدا حيث كانت السفن الإسبانية في خطر، ولهذا قرر دييغو دوفيرا الإنزال، فخرج عروج للقائه مستغلا ارتباك وسوء تنظيم الإسبان، فأثخن فيهم القتل[5]، وذلك رغم الدعم الذي أرسله قائد قلعة البينيون حسب دي غرامون[6].

[1]- صالح عباد، المرجع السّابق، ص.47.

[2]- مبارك الميلي، ج،3 المرجع السّابق، ص.46.

[3] -Fray Diego de Haedo, Topographie et Histoire…, op.cit, p.21.

[4] -H.D.de Grammont, op.cit, p.23.

[5] -Ibid.

[6]- Idem., p.24.

حاول عرب متيجة الرد على عروج وانضموا إلى حميد العبد ملك تنس، حيث تقدّموا نحو الجزائر العاصمة بجيش مكوّن من 8000 جندي[1]، فاستدعى عروج خير الدين من دلس وعهد إليه حكم المدينة في غيابه وأخذ معه ما يقارب العشرين من الأعيان والوجهاء كرهائن خوفا من التمرد[2]، وخرج لملاقاة الأعداء بـ 1500 تركي فقط[3].

فتمكن من هزيمة حميد العيد الذي فر إلى الجبال، ودخل عروج تنس في جوان 1517م، وهناك وصلته وفود من مدينة تلمسان تستغيث به ضد سلطانها "أبو حمو الثالث" الذي تحالف مع الإسبان ضد سلطانهم الشرعي أبو زيان[4].

كان عروج قد استولى على المدية وملیانة، بينما استولى خير الدين على دلس ونواحيها[5]، وفي 11 محرم 923هـ/ الموافق لـ 3 فيفري 1517، تمكن السلطان سليم الأول من احتلال مصر فأرسل له الريس عروج مع الريس مصلح الدين الهدايا والتحف الثمينة تبريكا له بفتح مصر، وقد عرض عليه مراسيم الطاعة، وأعلم السلطان سليم الأول بما حققه من انتصارات هو ورفاقه الأبطال فرد عليه السلطان سليم بجواب تقدير وإعجاب وتقبل عرض عروج بكل مميونية[6].

وفي تلك الأثناء حدثت قلاقل شديدة بتلمسان، حيث سجن الأمير أبو حمو ابن أخيه أبا زيان الأمير المتوفي واعترف أبو حمو بحماية الإسبان لبلده، وقدم ولاءه إلى إسبانيا وأيدته الحامية الإسبانية بوهران، شكل أعيان تلمسان وفدا أرسلوه إلى عروج يستنجدون باسم الإسلام ضد عمه أبو حمو وراسل عروج من سجنه[7] وفورا قام عروج بمراسلة أخيه خير الدين ليرسل له عن طريق البحر عشرة مدافع صغيرة نحو ساحل تنس[8].

---

[1] -Lamé Fleuvry, op.cit, p.126.

[2]- عبد الحميد بن أشنهو، دخول الأتراك العثمانيون إلى الجزائر، المطبعة الشعبية، الجزائر، د.ت، ص.76.

[3] -Lamé Fleuvry, op.cit, p.126.

[4]- عبد الحميد بن أشنهو، المرجع السّابق، ص. 76.

[5]- مبارك الميلي، ج3، المرجع السّابق، ص. 46.

[6]- عزيز سامح ألتر، المرجع السّابق، ص ص. 58-59.

[7]- مبارك الميلي، ج3، المرجع السّابق، ص.47.

[8] -Fray Diego de Haedo, Histoire des Rois..., op.cit, p.27.

فتح عروج أولا قلعة القلاع أو قلعة بني راشد[1]، ويذكر دي غرامون أن عروج ترك شقيقه إسحاق قائدا على القلعة رفقة 200 جندي مسلحين بالبنادق[2]، واتجه عروج إلى تلمسان ولما بلغ نبأ سيره إلى تلمسان التجأ أبو حمو الثالث إلى فاس، ثم إلى الحامية الإسبانية بوهران بعد أن انهزمت وأخرج التلمسانيون أبا زيان من السجن ونصبوه أميرا وعندما دخل عروج تلمسان استقبله أهلها استقبال المنقذين، إلا أن الجند الأتراك أغلظوا في معاملة أهل تلمسان وراح عروج يتصرف في تلمسان تصرف الفاتحين، مما جعل أهل تلمسان يندمون على الاستنجاد به[3]. ويبدو أن أبا رأس قد تأثر للقمع الذي مارسه عروج على سكان تلمسان، فينقل دعوة ابن ملوكة عليه بالموت[4].

استقر عروج بالمشور واحتل المدينة بالقوة، الأمر الذي جعل التلمسانيين يندمون على أميرهم القديم، وفي نفس اليوم قام بإغراق سبعين أميرا زيانيا[5] وقتل أميرهم أبأ زيان بعد أن طلب منه هذا الأخير الرأفة في معاملة أهل تلمسان. ومن أجل كسب التأييد ضد الهجومات المحتملة، قام عروج بعقد معاهدة مع حاكم فاس، وفي نفس الوقت قام بترميم جميع الحصون الموجودة بالمدينة[6].

كان أبو حمو قد سافر إلى إسبانيا مع قائد وهران الإسباني، بعد تتويج شارلكان على عرش إسبانيا خلفا للملك فرديناند، حيث عاد بعدها الاثنان رفقة حوالي عشرة آلاف جندي إلى وهران في بداية سنة 1518م، وبفضل هذا الدعم تمكن أبو حمو من قتل إسحاق والقضاء على الحامية التي تركها عروج في قلعة بني راشد[7].

---

[1]- مبارك الميلي، ج3، المرجع السّابق، ص.47.

[2] -H.D. De Grammont, Quel est le lieu de la mort d'Aroudj Barberousse, Revue Africaine, n°22, 1877, p.390.

[3]- مبارك الميلي، ج3، المرجع السّابق، ص49.

[4]- محمد بن أحمد أبي رأس الناصر، عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، ج1، تر. محمد غانم، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2005 ص50.

[5] -H.D.de Grammont, op.cit, p.25.

[6] - Ibid.

[7]- صالح عباد، المرجع السّابق، ص 48.

سار بعدها الجيش الإسباني نحو تلمسان، الذي تكوّن من 11.500 جندي وخمسة وثلاثين ألفا من أتباع أبي حمو[1]، واستمر الجيش الإسباني يحاصر تلمسان ستة أشهر كاملة[2]، ولمّا حلّ عيد الفطر اغتنم السكان هذه الفرصة، فطلبوا من عروج أن يأذن لهم في الدخول إلى المشور لأداء صالة العيد، فأذن لهم وما كادوا يعبرون أسوار المشوار، حتى سلوا أسلحتهم التي كانت مخفية تحت البرانيس ونزلوا في الأتراك ضربا وتقتيلا، فلم ينج إلا عروج وقليل من صحبه الذين اختفوا في معبر سريّ، وقرّروا الانسحاب على أمل اللّحاق بساحل البحر، أين سيجد في انتظاره هناك خير الدين[3].

واستمر عروج في اختراق خطوط الإسبان، ليعبر عين تموشنت وكان الماركيز قد علم بهروبه متأخرا، حيث قام بملاحقته والتقى الطرفان مساء اليوم الموالي بين سيدي موسى ومعبر نهر ريو دو سالدو "Rio Salado"، نجح عروج في اجتياز النهر إلى الطرف الآخر، ومن هناك أخذ في مراقبة المعركة اليائسة التي كانت مؤخرة جيشه تخوضها بهدف تغطية انسحابه، على أن التأثر البالغ بالبطولة والإخلاص اللذين أبداهما رفاقه دفعاه للإسراع عائدا من جديد، ومعه معيته ليعبر النهر. انضم بربروسا إلى المدافعين عن رأس الجسر، وكان يدرك جيدا أن الوضع ميئوس منه، وبعد بضع ساعات إذ بالمنتصرين يكتشفون فوق أرض المعركة جثة عروج وقد تشوهت تماما[4].

وأرسل رأسه إلى إسبانيا كما أخذ الإسبان ثيابه التي كانت من قطيفة حمراء مزركشة بالذهب وسلموها إلى كنيسة القديس جيروم بقرطبة، فصنع رجال الدين هناك شعارا يسمى "شارة بربروس"[5].

ما إن توفي عروج في تلمسان، حتى أيقن خير الدين أن الحرب ضد الإسبان دون حماية قوة عظمى يعتبر مجرد حرب عصابات لا يمكن أن تؤدي الغرض، "فقام خير

[1]- يلماز أوزوتونا، ج2، المرجع السّابق، ص ص250-251.

[2] -H.D.de Grammont, op.cit, p.26.

[3]- مبارك الميلي، ج3، المرجع السّابق، ص 50.

[4]- ياستيك ماخوفسكي، المرجع السّابق، ص 95.

[5]- مبارك الميلي، ج3، المرجع السّابق، ص 52.

الدين باستشارة أهل البلد في الانضواء تحت راية الدولة العثمانية، حيث رحب أعيان المدينة وأهلها بالفكرة"[1]، وهكذا ألحقت الجزائر بلادولة العثمانية بشكل نهائي سنة 1519م.

3- إلحاق تونس بالتاج العثماني:

لقد استمرت تونس سجاgا بين الدولتين العثمانية والإسبانية، ففي "سنة 1533 أستدعي خير الدين بربروسة إلى اسطنبول؛ وأوكلت له مهمة قيادة الأسطول العثماني، خاصة وأن إبراهيم باشا كان لا يزال متواجدا في المشرق. استطاع خير بكفاءته التخطيطية أن يقنع السلطان العثماني بضرورة السيطرة على تونس؛ ولهذا الغرض جلب معه رشيد الحفصي إلى قصر السلطان، أحد أفراد العائلة الحاكمة التونسية، الذي كان محبوبا من قبل سكان تونس، الذين ضاقوا ذرعا من ولاء حاكمهم الحالي لشارل الخامس.

وفي أوائل سنة 1534 بعدما سافر السلطان سليمان قاصدا مدينة تبريز، خرج خير الدين بمراكبه من بوغار الدردنيل، غير قاصد تونس مباشرة بل عرج في طريقه على جزيرة مالطة وبعض مباني جنوب ايطاليا لغزو مراكبها وأهلها دون احتلالها، حتى لا يعلم قصده الأصلي وهو فتح تونس[2]. ويذكر لان بول: "دخل خير الدين مضيق مسينا الذي يربط جزيرة صقلية بكلابريا، وهاجم قلعة سانت لوسيدا وأخذ منها ثمانية آلاف أسير، كما استولى على ثمانية سفن من ميناء كترارو، وهاجم سبارلينغا وأخذ منها السفن والنساء، ثم تسلل إلى قلعة الفوندي وأسر الأميرة جوليا قونزاقا (Guilia Gonzaga)"[3]. وكانت سفنه تتكون من مائة سفينة: 35 باشتارد، 35 غاليه، و6 غليوطات و7 سفن مجدافية، و24 ألف مقاتل، و270 قاذف مدفعية[4].

---

[1]- عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السّابق، ص300.

[2]- محمد لعروسي المطوي، السلطنة الحفصية، تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي، دار الغرب، بيروت، 1986، ص685.

[3] -Lane-Poole Stanley, The Story of the Barbary corsairs, G.P. Putnam's Sons, New York, 1890, p85.

[4] -Emrah Safa Gürkan, op.cit, p111.

وتوقف خير الدين في الطريق بقسنطينة لإخماد ثورة تجددت فيها، ثم واصل سيره متوجها نحو عنابة، ومن هناك إلى تونس، فنزل بحلق الواد في 16 أوت 1534 ولقي جنوده بعض المقاومة في مدينة باجة أين قتل بعضهم... وبعد دخوله مدينة تونس ثارت ضده الإنكشارية، بسبب تأخر دفع مستحقاتهم ولم يتمكن خير الدين من القضاء على هذه الثورة إلا بعد أن أنفق أموالا طائلة[1].

هذا الإنجاز لم يدم طويلا ففي سنة 1535 وجه شارل الخامس حملة نحو تونس، لأنه كان يعلم جيدا أن عدم استعادة تونس سيشجع خير الدين على مهاجمة الممتلكات الإسبانية الأخرى بشمال إفريقيا "واستطاع الإسبان دخول تونس واستعادتها من الأتراك، وإطلاق سراح الأسرى الذين قدروا بحوالي عشرين ألف... كما كان على تونس أن تدفع اثنا عشرة ألف دوقة ذهبية سنويا، والاعتراف بالتبعية للإسبان والامتناع عن القرصنة، ومن أجل تحقيق هذه الوعود وصلت المدينة حامية إسبانية، تضاف إلى القوة التي تسيطر على الميناء الذي يعرف بحلق الوادي"[2].

وبقيت تونس تحت السيطرة الإسبانية إلى غاية سنة 1570م أين تمكن علج علي من فتح تونس، والانتصار على السلطان الحفصي المدعوم من الإسبان، لكن الإسبان لم يبقوا مكتوفي الأيدي خاصة بعد الانتصار الكاسح الذي حققوه رفقة العصبة المسيحية ضد التاج العثماني سنة 1571م في معركة ليبانتو، ولهذا أرسلوا الأميرال "الدون خوان دوريتش الذي دخل المدينة دون مقاومة تذكر، ألزمت حاكمها العثماني حيدر باشا على الفرار إلى القيروان، وهكذا بسطت الإسبان يدهم على تونس كاملة في شهر أكتوبر سنة 1573م"[3].

[1] - De Grammont. H. D, op.cit, pp 37-38.

[2]- Fleuvry Lame, Histoire de l'Algérie racontée à la jeunesse, A. Allouard libraire, Paris, 1848, p130.

[3]- سحابات زهيرة، الحضور الجزائري في إيالة طرابلس خلال العهد العثماني - 18301628م، أطروحة لنيل درجة الدكتوراه، جامعة سيدي بلعباس، 2020م، ص25.

لم يرى العثمانيون سيطرتهم على العالم الإسلامي إلا والمغرب العربي موحد تحت خلافة واحدة، ولهذا جهزوا حملة سنة 1574م تحت قيادة سنان باشا بهدف استرجاعها من السيطرة الإسبانية، حيث تذكر المصادر أن "ثلاثمائة سفينة عثمانية قد غادرت باتجاه تونس".

وكان فتح تونس مهما بالنسبة للسلطان العثماني حتى أنّه راسل ملك كوكو نفسه يطلب منه المساعدة في فتح تونس، جاء في المراسلة ما يلي: "إلى أمير كوكو في إيالة الجزائر، لقد سبق وأصدرنا أمرنا الشريف إليك فيما يخص مساندتك ومعاونتك لأمير أمراء الجزائر... ونظرا لاستيلاء الكفار على تونس فقد تقرر إرسال أسطول هاميوني في الربيع القادم... ولهذا وجب تأمين القدر الكافي من الذخير والانضمام إلى الأسطول الهاميوني..."[1].

وصل الأسطول قبالة السواحل التونسية في ربيع سنة 1574م، وعلى متنه خمسة وسبعون ألفا من الجنود بالإضافة لثلاثين ألفا من القوات الطرابلسية والتونسية والجزائرية[2].

تمكن العثمانيون من فتح حلق الوادي بتاريخ 24 أوت سنة 1574م رغم المحاولات الإسبانية والحفصية، حيث لم تكفي التحصينات والجيش المكون من سبعة آلاف جندي، كما استسلمت آخر حامية إسبانية في تونس يوم الثالث سبتمبر سنة 1574م، ثم حاول "الدون خوان دي أوستريا استعادة تونس انطلاقا من نابولي وصقلية سنة 1575م إلّا أن العواصف منعت ذلك"[3].

[1]- سحابات زهيرة، المرجع السابق، ص 28.

[2] - Garcé María Antonia, Cervantes In Algiers: A Captive's Tale, Vanderbilt University Press, Nashville, 2002, p222.

[3] - Garcé María Antonia, op.cit, p221.

ترك سنان باشا بعد مغادرته البلاد ديوانا يجمع مسؤولين لتسيير شؤون البلاد وخدمتها، ولكن بعد فترة ثار صغار الجند ضد رؤساء الديوان سنة 1571م بسبب جورهم وظلمهم، ومنذ تلك اللحظة بدأ أول حكم عثماني في تونس[1].

4- طرابلس الغرب:

تذكر بعض المصادر أن احتلال طرابلس الغرب بدأ التخطيط له بعد أن أبلغ التجار الإسبان الملك فيرديناند بأن المدينة يمكنها أن تشبع رغبات الإمبراطورية الإسبانية، وذلك بقولهم: "ما رأينا بلدا أكثر منها مالا وأقل سلاحا وأعجز أهلا عن مدافعة العدو"[2]، لكن الواقع يثبت أن الإسبان بعد أن احتلوا أغلب مناطق المغرب الأوسط بدأوا يفكرون في احتلال طرابلس الغرب، حيث يمكنهم جعلها قاعدة لهم في التوسع بمصر التي أضعفها الهوان والأزمات خاصة مع نظام حكم المماليك الذي كان آيلا للزوال.

احتل الإسبان طرابلس الغرب يوم لا 25 جوان سنة 1510م، حيث لم يجدوا صعوبة كبيرة في احتلال المدينة، وبيع الأسرى "المسلمون في باليرمو مقابل ثلاثة وخمسة دوقات على عكس اليهود الذين اشتراهم يهود وحرّروهم"[3].

دخلت بعدها طرابلس تحت حكم الإسبان، رغم محاولات إعادة تحريرها من قبل الساكنة المحلية، فمثلا: قاد عرب طرابلس "هجوما على المدينة في فبراير سنة 1511م، غير أنهم فشلوا في اجتياز الأسوار"[4].

وما إن استقرت طرابلس للإسبان حتى بدأوا في تحصينها وإعادة إعمارها على أنها مدينة إسبانية، فيذكر الوزان قائلا: "لقد وجدت الإسبان قد حصنوا قصر طرابلس

[1]- فاطمة الزهراء آيت بلقاسم، الحكم العثماني في الجزائر دراسة مقارنة، كان التاريخية، ع 37، سبتمبر 2017م، ص 11.

[2]- أحمد الأنصاري بك، المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، مكتبة الفرحان، ليبيا، ص185.

[3]- مصطفى عبيد، طرابلس الغرب من الاحتلال الإسباني إلى دخول العثمانيين 1510-1551م، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، م09، ع18، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، سبتمبر 2019، ص 326.

[4]- عمر محمد الباروني، الإسبان وفرسان القديس يوحنا في طرابلس، مطبعة ماجي، ليبيا، 1952م، ص 59.

بصور متين ومدفعية ضخمة حين زيارتي إليها سنة 1518م، وسمعت منذ وقت قريب أنّ أمير المدينة أخذ يعمّرها بالسكان باسم القيصر"[1].

وهكذا استمرت المدينة تحت سلطة الإسبان، رغم شكاية أهل طرابلس للباب العالي أمرهم سنة 1520م، غير أن مراد آغا مبعوث السلطان عجز عن تحريرها، وذلك للتحصينات القوية التي زود بها الإسبان المدينة.

وبعد أن تمكن العثمانيون سنة 1523م من تحرير جزيرة رودس آخر عقبة لهم في الجزء الشرقي للبحر الأبيض المتوسط، أين طردوا منها فرسان القديس يوحنا، ولتعويضهم عن خسارتهم فإن "الملك الإسباني منحهم طرابلس الغرب في لا 25 جويلية سنة 1530م"[2].

قام خير الدين بربروسة بفتح مدينة تاجوراء سنة 1531م، وولى عليها خير الدين كرمان، ثم وليّ عليها مراد آغا بعد وفاة كرمان سنة 1538م[3].

ورغم قرب المسافة بين مدينة تاجوراء وطرابلس الغرب، إلّا أن طرابلس استمرت خاضعة لفرسان القديس يوحنا إلى غاية سنة 1551م، وهي السنة التي قاد فيها درغوث باشا حملة لتحريرها.

كانت مدينة طرابلس خلال هاته الفترة تحت قيادة الحاكم "اسبارد فاليي، وثلاثمائة وخمسين مرتزقا"[4]، حيث أقلع الجيش العثماني تحت قيادة درغوث باشا باتجاه طرابلس الغرب يوم لا 18 جويلية سنة 1551م، بجيش قوامه 17 ألف جندي وستمائة

[1]- الحسن بن محمد الوزان، وصف إفريقيا، ج2، تح. محمد حجي ومحمد الأخضر، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983، ص 101.

[2]- سالم جوامع، طرابلس الغرب من انهيار الحكم الحفصي إلى الفتح العثماني (قراءة تحليلية في التطورات السياسية من منتصف القرن لا 15 إلى منتصف القرن لا 16م)، المجلة للجزائرية للأبحاث والدراسات، م04، ع01، جانفي 2021م، ص215.

[3]- المرجع نفسه، ص 218.

[4] - BRAUDEL Fernand, The Mediterranean and the Mediterranean World in the Age of Philip II, Volume 01, Univ of California Press, 1995, p.920.

فارس، بالإضافة إلى اشتراك كل من القادة مراد آغا وسنان باشا وبياليه باشا[1]، ويذكر سيتون كينيث أن "السفير الفرنسي لدى الباب العالي غابريا دارمون قد رافق الأسطول العثماني إلى طرابلس رفقة غاليارتين وغليوطة[2].

وصل الأسطول إلى السواحل الطرابلسية يوم لا 04 أوت سنة 1551م، حيث قاد مراد آغا الهجوم برا في الوقت الذي استمر فيه درغوث باشا يقصف المدينة من البحر من خلال مدافع البحرية، وفي 18 أوت تمكن العثمانيون من إحداث فتحة في سور القلعة ودخلوا المدينة غانمين، بعدما أقر العثمانيون بشروط الاستسلام التي طلبها الفرسان، وهي السماح لهم بالمغادرة دون المساس بأرواحهم وممتلكاتهم، وفعلا فإن العثمانيين وفوا بالشروط دون أن يمسوهم بسوء[3].

وهكذا بدأت حقبة جديدة من الحكم العثماني لطرابلس، ستستمر لقرون كاملة، وذلك إلى غاية الاحتلال الإيطالي للبلاد سنة 1911م.

وفي المقابل فإن عودة الفرسان إلى مالطا شكلت نكسة كبيرة للمجتمع الإسباني والمالطي خاصة، حيث انتقد غاسبارد بشكل كبير من قبل السيد الأعظم خوان دي هوميديس إكوسكون بتهمة استسلامه دون استشارته، كما جرده من جميع الرتب والسلطات الممنوحة لشخصه، وعزله من التنظيم[4]. ويذكر بعض المؤرخين أن سقوط طرابلس كان بداية للحرب الإيطالية التي امتدت بين سنتي 1551-1559م، حيث أرسل العثمانيون مائة غليارة لمساندة الملك الفرنسي في حربه ضد الإسبان.

[1]- مصطفى عبيد، المرجع السابق، ص 334.

[2]- Setton, Kenneth M, The Papacy and the Levant (1204–1571), Vol.03, The Sixteenth Century to the Reign of Julius 3, The American Philosophical Society, Philadelphia, 1984, p. 555.

[3]- سالم جوامع، المرجع السابق، ص 211.

[4] -SUTHERLAND Alexander, Achievements of the Knights of Malta, Carey & Hart, 1846. p108.

المحاضرة الخامسة: تطور نظام الحكم في الجزائر خلال الفترة العثمانية.

كانت الجزائر أوّل الدول المغاربية التي انضمت إلى الدولة العثمانية، أين شهد فيها نظام الحكم تطورا كبيراً نتيجة الصّراع الذي ظلّ سجالا بين الطائفة البحرية والإنكشارية، حيث شهد عهد البايلربايات حكم رياس البحر 1519-1587م، ثم عهد الباشاوات الذي كان تارة يميل للرياس وأخرى للإنكشارية، ليأتي عهد الأغاوات الذي سيطرت فيه الإنكشارية على الحكم سنة 1659م، ولم يتوقف هذا الصراع خلال عهد الدايات حيث استمر إلى غاية سقوط الجزائر سنة 1830م.

1- مرحلة البايلربايات[1]:

إن مرحلة البايلربايات هي أول مرحلة حكم شهدتها الجزائر تحت الراية العثمانية، وقد امتدت بين سنتي 1519-1587م، حكم خلالها البايلربايات الجزائر (أمير أمراء)، فبعد مقتل عروج في الواد المالح سنة 1517م[2]، أيقن خير الدين أن مقاومة الإمبراطورية الإسبانية في ظل الانهيار التي كانت تشهده دويلات المغرب الإسلامي غير ممكن خاصة وأن الفوارق العسكرية كان يمكن ملاحظتها جيداً بين جيشه والإمبراطورية الإسبانية، فقرر الرحيل والعودة إلى عملياته البحرية في المتوسط ضد العالم المسيحي.

لكن السّاكنة المحلية استنجدت به وطلبوا منه ربط الجزائر بالدولة العثمانية، وفعلا فقد وصلت الشارة الهاميونية في ماي سنة 1519م، وأرسلت تجهيزات عسكرية وحوالي 2000 من الإنكشارية إلى الجزائر.

تميّز عهد البايلربايات بالآتي:

---

[1]- لقب يعني باي البايات أي أمير الأمراء وكان هذا المصطلح أكثر شيوعا في الفترة الوسيطة والحديثة، فمثلا انتشر في إنجلترا مصطلح لورد اللوردات كلقب تشريفي، واستخدمه السلاجقة والدولة الإلخانية 1252-1335م، الدولة الصفوية، كما استخدمه أيضا القلات في الدولة الباكستانية ولاحقا الدولة العثمانية وذلك بدءا من القرن 14م وحتى أواسط القرن التاسع عشر. ينظر:

The Encyclopaedia of Islam, New Edition, Volume I: A–B. Leiden: E. J. Brill.

[2] -Kamel Filali, L'Algérie mystique: Des marabouts fondateurs aux khwân insurgés, XVe-XIXe siècles, Publisud, coll. «Espaces méditerranéens», Paris, 2002, p214.

- أرسل السلطان العثماني إلى الجزائر ألفين من الإنكشارية سنة 1519م، وأربعة آلاف متطوع تركي[1].
- كانت الجزائر قلب الحكم العثماني في المغرب العربي، حيث تخضع لسلطتها كل من تونس وطرابلس الغرب.
- تزامن حكم البايلربايات مع عصر الحروب الكبرى بين الدولتين العثمانية والإسبانية، حيث قاد الأسطول العثماني في مرّات عديدة حكام جزائريون، ففي سنة 1538م استطاع خير الدين القائد الأعلى للأسطول الهاميوني أن يهزم القرصان الكبير أنديري دوريا في معركة بروزة، وفي سنة 1571م وأثناء معركة ليبانتو استطاع حاكم الجزائر علج علي إنقاذ الجبهة اليمنى والعودة إلى الدولة العثمانية بعد أن هزم العثمانيون من قبل العصبة المسيحية، ليعيّن بعدها قائدا عاما للأسطول الهاميوني[2].
- استطاع الجزائريون خلال هاته الفترة استعادة الكثير من الثغور التي كانت تحت الإحتلال الإسباني، فاستعادوا قلعة البينيون سنة 1529م وتلمسان سنة 1554م، وبجاية سنة 1555م، وطرابلس الغرب (ليبيا حاليا) سنة 1551م، وتونس سنة 1574م، ورغم هذا فقد بقيت كلّ من المرسى الكبير ووهران محتلة من قبل الإسبان إلى غاية سنة 1792م.
- شهدت الفترة غارات "صليبية" إسبانية مدعّمة من قبل البابا الذي طلب من المسيحيين مرافقة شارل الخامس في عمليات احتلاله لشمال إفريقيا "واعداً كلّ من رافق حملاته أن يمسح خطاياه وأن الجنة موعد كلّ من مات يقاتل الكفّار"[3].

فمثلا: هاجم سنة 1519م هيغو دي مونكادا الجزائر حيث رافقه في هاته الحملة آلاف المتطوعين الذين وعدوا بالجنّة[4].

---

[1] -De Gramont, op.cit, p45.

[2]- ينظر: قرباش بلقاسم، الأسرى الأوروبيون...، المرجع السّابق.

[3] -Alessandra Stella, Histoires d'esclaves dans la Péninsule Ibérique, Édition de l'École des Hautes Etudes en Sciences Sociales, Paris, 2000, p. 68.

[4] -Martin Andrew Sharp Hume, Spain: Its Greatness and Decay (1479-1788), University Press, 1899, p43.

- كما قاد شارل الخامس حملة ضد الجزائر سنة 1541م على رأس قوات تكونت من 516 سفينة من نوع الغاليه والغليوطات، وعلى متنها 40.000 مقاتل، وقد رافق الحملة أيضا رجال مع عائلاتهم بهدف الاستقرار بالمدينة بعد احتلالها واستيطانها كما حدث مع العالم الجديد، لكن الحملة فشلت نتيجة لسوء الأحوال الجويّة التي أغرقت أغلب الأسطول الإسباني[1].
- استدعى سنة 1543م الملك الفرنسي فرانسيس الأول خير الدين حاكم الجزائر إلى مارسيليا مع أسطوله المكوّن من 150 سفينة، وقد علّق ستانلي لان بول قائلا: "لقد أنزلت راية العذراء لتعوّض بالهلال الإسلامي"، وأما بالنسبة لأحد أدميرالات البحرية فقد اعتبره "اتحادا إلحاديا"، ليقلع في جويلة من ذات السنة باتجاه خليج ليون أين استقبل بحفاوة من قبل دوق إنجيان فرانسوا بوربون القائد الأعلى للبحرية الفرنسية. ورغم المعارضة الداخلية التي تعرض لها فرانسيس لتحالفه مع "الهراقطة المسلمين" حسب المعارضين، فإنّه قرّر المضيّ قدما وطلب من خير الدين قصف نيس، لكن الحملة لم يقدر لها النجاح، وعادت بعدها البحرية الجزائرية لتستقر في ميناء طولون طيلة الشتاء، وقبل المغادرة فإن الحملة كلّفت الخزينة الفرنسية الكثير، "فبالإضافة لدفع الفرنسيين أجرة البحارة الجزائريين فإنهم أجبروا على تحرير 400 ملسم من الغاليارات الفرنسية، كما أن خير الدين حصل على الكثير من الهدايا[2].
- تميّز عهد البايلربايات بالاستقرار السياسي، حيث شهدت الجزائر تكاتفا بين أهل البلد والسلطة التركية الحاكمة، خاصة وعمليات التحرير المستمرة التي كان يقودها البايلربايت في المناطق الجزائرية.
- أصبحت الجزائر خلال هاته فترة مركز الحكم العثماني في المغرب الإسلامي، تتبع لها كل من تونس وطرابلس الغرب.

[1] -Fatiha, op.cit, p. 35.
[2] -Stanly Lane Poole, pp.105-109.

- سيطرة طائفة الرياس على الحكم، وهكذا فقد شهدت الفترة حكم رجال البحرية للجزائر، ويؤكدّ الكثير من المؤرخين أنّ رجال البحرية كانوا أكثر قربا من السكان المحليّين، ذلك أنّ المواطن الجزائري كان يحق له المشاركة بأسهم عند خروج الأسطول الجزائري إلى البحر ليأخذ فوائد محددة بعد عودة البحارة بالغنائم؛ حتى أن النساء الجزائريات كن يضعن ذهبهن أملا في الحصول على فوائد[1].
- كان للبايلرباي صلاحيات غير محدودة في الحكم، وله الحق في اعتلاء العرش دون تحديد فترة الحكم إلا في الحالات التي يتجاوز فيها الحاكم صلاحيات قد تهدد الوجود العثماني داخل المنطقة، فقد عزل حسن باشا ابن خير الدين مرتين عن حكم الجزائر[2] لمشاكل مع الجارة المغرب حسب الرواية العثمانية، وفي تقارير أخرى فإن "القنصل الفرنسي كان له دور كبير في عزله، حيث وسوس للسلطان عن إساءة حسن باشا للفرنسيين[3].
- اعتبرت اللغة التركية لغة السلطة، المراسلات ولغة الإدارة العثمانية في الجزائر، في الوقت الذي بقيت اللغة العربية لغة العلماء والقضاء المالكي، والتدريس حيث اعتمدت اللغة العربية في المساجد، الكتاتيب والزوايا[4].
- يضاف إلى أنّ الحياة الثقافية خلال هاته الفترة قد تميّزت بالجمود الفكري، حيث لم يظهر أحد من المفسّرين ولا المصلحين طيلة سبعين سنة كاملة[5].

[1]- ينظر: ويليام سبنسر، المرجع السّابق.

[2] -Playfair, Handbook, op.cit, p19.

[3]- ينظر: صالح عباد، المرجع السّابق.

[4] -Playfair, Handbook, op.cit, p19.

[5]- عبد الجليل رحموني، اهتمامات المجلة الإفريقية بتاريخ الجزائر العثمانية 1520-1830م، مذكرة لنيل درجة الماجستير، جامعة سيدي بلعباس، 2015م، الإفريقية عن:

Kuran E., La lettre du dernier Dey d'Alger au Grand Vizir de l'Empire Ottoman, R.A., n°96, Alger, 1952, p. 95.

- قام حسن باشا بتقسيم الجزائر إلى أربعة بايلكات يحكم كل منها باي يقوم بتعيينه حاكم الجزائر[1].

1. **دار السلطان**: توجد في الجزائر العاصمة، وهي مركز حكم البايلرباي، وتمتد من دلس شرقا إلى مدينة شرشال غربا، ويحدها من الجنوب بايلك التيطري.
2. **بايلك التيطري**: عاصمته المدية، يحده من الشمال سهل متيجة، والصحراء جنوبا.
3. **بايلك الغرب**: عاصمته مازونة ثم معسكر سنة 1710م، لينتقل في النهاية إلى وهران وذلك بعد استعادتها من قبل الباي عثمان سنة 1792م، أين يحده غربا بايلك التيطري وشمالا سهل متيجة وجنوبا الصحراء.
4. **بايلك الشرق**: عاصمته قسنطينة، ويحده من الشرق تونس، وشمالا البحر المتوسط وجنوبا الصحراء، وغربا بلاد القبائل.

2- عصر الباشاوات 1587-1659م:

كان آخر البايلربايات هو حسن فينزيانو والذي بانتهاء ولايته على الجزائر سنة 1587م انتهى معه حكم البايلربايات في الجزائر، حيث استبدل بنظام جديد هو نظام البشاوات الذي امتد بين سنتي 1587م- 1659م.

تميّز حكم الباشاوات بالآتي:

- دام عهد الباشوات 72 سنة كاملة.
- تولى حكم الباشوات ثلاثون واليا، أين كان الباشا يحكم لمدة ثالث سنوات ويعيّن من الأستانة مباشرة، ولأن المدة قصيرة فقد انصرف الكثير من هؤلاء الباشاوات إلى السلب والنهب ومحاولة الاغتناء وجمع الثروة[2].

[1]- عمار بوحوش، التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية 1962م، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997م، ص ص 62-63.

[2]- أديب حرب، التاريخ العسكري والإداري للأمير عبد القادر الجزائري 1808-1847، ج1، دار الرائد للكتاب، الجزائر، 2004، ص 35.

- فصل الحكم العثماني في المغرب العربي والذي كان مقره سابقا بالجزائر، وتعيين باشا تركي في كل من الجزائر وتونس وطرابلس، يحكم كل واحدة منها مبعوث أو أحد قادة الإنكشارية أو البحرية[1].
- تزامن عهد الباشاوات مع ما يسميه الغرب قرن "القرصنة"، أين برز فيه الرياس الجزائريون بشكل لافت، فبعد هزيمة العثمانيين في معركة ليبانتو سنة 1571م، وهزيمة الإسبان في معركة الأرمادا ضد الانجليز سنة 1588م، تراجعت قواتهما وأُفسح المجال لبحارتهما أو ما يسميه الغرب "القراصنة" "Corsairs" للسيطرة على البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي ومهاجمة مناطق وتجارة الدول المعادية، ولقد كانت هاته المرحلة أحد أكثر المراحل التي توهجت فيها عائدات البحرية الجزائرية، أين "تمكن الجزائريون من الوصول إلى جزيرة آيسلندا سنة 1627م[2]، وأسر 242 آيسلنديا، كما قادوا هجوما آخر على بالتيمور الواقعة في آيرلندا سنة 1631م وتمكنوا من أسر حوالي 273 أسيرا آيرلنديا"[3].
- بداية الانفصال عن الباب العالي تدريجيا، ففي سنة 1604م وقع الهولنديون معاهدة سلام مع الجزائر، حيث كانت الدول الأوروبية في السابق توقع المعاهدات مع الدولة العثمانية دون الحاجة إلى الجزائر[4].
- كان الحكم سجالا بين الإنكشارية ورجال البحرية، وهذا خلق صراعا مستمرا سيؤثر لقرون في طبيعة الحكم العثماني في الجزائر، "حيث تم قتل العديد من الباشاوات بسبب الصراع القائم على السلطة، مثل: خضر باشا الذي أعدمه محمد قوصة باشا، ونفس الباشا محمد قوصة مات مقتولا هو أيضا"[5].

---

[1]- عمار بوحوش، المرجع السابق.

[2] -Erik Gobel, "The Danish-Algerian Sea Passes, 1747-1838: An Example of Extraterritorial Production if Human Security", Historical Social Research, Vol.35, N.04, 2010, p166.

[3] -James Coleman, "The Barbary Corsairs in Ireland", The Journal of the Royal Society of Antiquaries of Ireland, Fifth Series, Vol.01, N.02, 1890, p167.

[4]- قرباش بلقاسم، الأسرى الأوروبيين في الجزائر خلال عهد الدايات 1830-1671م، أطروحة لنيل الدكتوراه، جامعة معسكر، 2016م، ص.60.

[5]- مبارك الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج3، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، ص149.

- اعتناق عدد هائل من الأسرى المسيحيين للإسلام، بشكل جعل الكنيسة تدق ناقوس الخطر، حيث تقدم لنا بعض الإحصاءات أن عدد الأسرى الذين اعتنقوا الإسلام قد بلغ ثلاثمائة ألف خلال الفترة الممتدة بين سنتي 1550-1700م[1].

3- عهد الآغاوات:

أعقب عهد الباشاوات عهد الآغوات أحد أسوأ أنظمة الحكم العثمانية في الجزائر، حيث انتهى كل آغاواته مقتولين، لأجل صراع على الحكم، ولأنّ بعضهم أراد الانفصال على الحكم العثماني.

وكان سبب إعلان نظام الآغاوات هو ثورة الإنكشارية حيث لم تستطع الصبر على الحالة المالية للبلد، رغم محاولات الباشا إبراهيم ابتزاز "أغنياء المدينة وفرض غرامات إضافية على التجار والحرفيين...إلخ" كي يدفع مستحقات الإنكشارية، لكن في النهاية قام قادة الجيش برميه بالسجن في جوان سنة 1659م، "وطردوا ممثل الباب العالي علي باشا الذي طلب انضمام الأسطول الجزائري إلى الأسطول الهاميوني في كريت"[2]. ويذكر عزيز سامح ألتر أن الإنكشارية وبعد اجتماعها في الديوان قررت وضع الباشا وأتباعه في غليوطة وإرسالهم إلى أزمير... وردّ الصدر الأعظم كوبرلو محمد باشا برسالة إلى الإنكشارية يقول فيها: "أخيرا لن نرسل إليكم واليا، بايعوا من تريدون، السلطان ليس بحاجة إلى عبوديتكم، فالجزائر إن كانت وإن لم تكن شيء واحد..."[3].

ورغم سعي الجزائريين إلى إصلاح الوضع، وذلك بإرسال وفد إلى أزمير إلاّ أن الصدر الأعظم لم يقبل شفاعتهم، ثم راسلوا السلطان قائلين: "إنك لو أرسلت لنا كلبا لقبلناه باشا علينا"، لكن وفاة الصدر الأعظم كوبرلو محمد باشا وتعيين قرة مصطفى أصلح

[1] -Alan G. Jamieson, Lords of Sea, A History of the Barbary Corsairs, Reaktion books ltd, London, 2012, p.60.

[2]- أمين محرز، الجزائر في عهد الآغوات 1659-1671م، البصائر، الجزائر، 2013، ص 78.

[3]- عزيز سامح ألتر، المرجع السابق، ص 237.

الوضع حيث لان عوده وأرسل ممثلا عن السلطان هو القابجي بوشناق إسماعيل باشا آغا بوطوخين سنة 1661م[1].

وتميّز نظام حكم الآغاوات بالآتي:

- يحكم الآغا شهرين فقط؛ لكن في الحقيقة ولا آغا واحدا استمر حكمه الشهرين، حيث أن جلهم استأثروا بالحكم لأنفسهم[2].
- دام عهد الآغوات اثنا عشر سنة فقط، حيث امتد بين سنتي 1659-1671م، وبهذا فهو أقصر الأنظمة العثمانية في الجزائر.
- رغم قصر فترة حكم الآغاوات إلاّ أن هذا لم يمنع من كونه أسوأ نظام حكم شهدته الجزائر على طول فترة الوجود العثماني في الجزائر بين سنتي 1519-1830م، حيث توفي كل الآغاوات مقتولين، فأول حاكم للجزائر هو "بولكباشي خليل الذي حكم خلال الفترة بين سنتي 1659-1661م، حيث قتل بعد انقلاب الإنكشارية على الحكم، والسبب هو الهزائم التي توالت على الأسطول الجزائري ضد الدول الأوروبية"[3].
- سيطر على الحكم الإنكشارية بعد أن عزلوا الرياس، وأصبح الأغا يتم انتخابه من قبل ديوان الإنكشارية[4].
- حاولت الإنكشارية وضع نظام يمنع الأغا من الاستئثار بالحكم لنفسه، من خلال الاستعانة بلاديوان العالي الذي يضم أعضاء الفرق العسكرية البرية، ثم تم توسعته لاحقا حيث أصبح يضم ممثلين عن طائفة الرياس البحرية وبعض كبار الموظفين ومفتي الجزائر[5].

[1]- عزيز سامح ألتر، المرجع السابق، ص ص 237-238.

[2] -De Gramont, op.cit, p209.

[3] -Ibid, p. 211.

[4] -Playfair, op.cit, p45.

[5]- عمار بوحوش، المرجع السابق، ص 59.

- ساءت العلاقات الجزائرية الإنجليزية كثيرا خلال عهد الأغوات، فأرسل الإنجليز حملة ضد الجزائر تحت قيادة توماس ألين، انتهت بتوقيع السلم مع الأغا في 30 أكتوبر سنة 1664م[1].
- انهيار النفوذ العثماني في الجزائر وتراجعه، نتيجة رفض الآغوات استقبال ممثل السلطان إلى الجزائر.

4- عهد الدايات:

لقب أطلق على حكام الجزائر خلال الفترة الممتدة بين سنتي 1671-1830م، ويعني الخال وخلال هذا العهد استرجع الرياس البحريون سلطتهم في الجزائر.

لقد شهدت العلاقات الجزائرية الإنجليزية تدهورا أواسط القرن السابع عشر، فأرسل الملك الإنجليزي الأدميرال توماس آلين مجددا إلى الجزائر في أوت سنة 1669م، غير أنه لم يتوصل إلى نقطة اتفاق مع الأغوات ومجلس الإنكشارية، فوضع القنصل الإنجليزي في السجن، حيث كتب الأخير في نفس السنة ثلاثة رسائل إلى إنجلترا "يعلمهم فيها أنه يتواجد في الأسر بالجزائر"[2].

أرسل الإنجليز أسطولا إلى البحر الأبيض المتوسط سنة 1670م، وفي أوت من نفس السنة استولى الإنجليز على ستة سفن جزائرية في المتوسط، ثم غادر الأسطول الإنجليزي نحو بجاية وذلك بعد وصول أخبار تفيد بأن مجموعة السفن الجزائرية ترسو هناك، فاتجهوا هناك وحطموا سبعة سفن كاملة ذات الثمانية والعشرين مدفعا[3].

---

[1] -Articles of peace between His Most Sacred Majesty, Charles the Second, King of Great Britain, France and Ireland, &c. and the city and kingdom of Algiers, concluded by Thomas Allen Esquire, Admiral of His said Majesty of Great Britain's ships in the Mediterranean Seas, according to instructions received on that behalf from His Royal Highness the Duke of York and Albany, Earl of Ulster ... ; Being the same articles concluded by Sir John Lawson Knight, on the 23. of April, 1662. and afterwards more solemnly confirm'd on the 10. of November following, and since ratified by the Grand Signior, Edinburgh, : Re-printed in the year, 1664.

[2] -Jullian S. Corbett, England in The Mediterranean, 2Vol (Vol 2), 2nd Ed, Longmans, Greend and Co, London, 1916, p.101.

[3] - -Jullian S. Corbett., op.cit, p. 359.

أدت هاته الأحداث إلى ثورة الرياس ضد الأغا، وتعيين أول داي من طائفتهم البحرية، وهكذا أعاد الرياس ربط نفسهم بالباب العالي بشكل أفضل من سابقيهم، حيث كان الدايات الأربعة الأوائل من طائفة الرياس.

ورغم عودة الريّاس البحريين، إلاّ أنّ الضعف الّذي مسّ البحرية جعل "طائفة اليولداش تنمو بقوة على حساب الإنكشارية التي انهارت خاصة وأن الأناضول لم يعد يرسل بحارة أشداء بل أصبح الوافدون في أغلبهم من القتلة والمجرمين[1].

وقد تميز عهدا الدايات بالآتي:

- كان الداي يحكم مدى الحياة رغم أنه من النادر أن يصادف الباحث دايا أنهى مسيرته في الحكم.
- استمر حكم الدايات مائة وتسعة وأربعين سنة، حيث امتد بين سنتي 1671-1830م، وبهذا فهو أطول عهود التواجد العثماني في الجزائر.
- كان أول داي حكم الجزائر سنة 1671م هو الحاج محمد باشا، ورغم قوة الداي الجديد وعدم استئثاره بالحكم لنفسه؛ إلاّ أن الحاكم الفعلي للجزائر كان صهره بابا حسن[2].
- لقد كان للداي القوة الكاملة نظريا في إدارة البلاد، رغم أن الديوان هو من ينتخب الداي، وله الحق في أن يكون المستشار [الديوان] الأول للداي، وهذا لكيلا يشعر الداي بالقوة المطلقة حين يدير مقاليد البلد وحده؛ لكن الواقع يثبت أن الداي كان يرجع في استشارته دوما لوزرائه مثل: الخزناجي وآغا المحلة ووكيل الخرج... إلخ، وقد شكل هؤلاء الوزراء ديوانا منافسا للديوان الأكبر[3].
- انتشار الظلم والتعسف ضد أهل البلد؛ خاصة من قبل البايات، مثل: باي بايلك الغرب بوكابوس محمد بن عثمان الذي قتل السائح بن خضرة رئيس قبيلة سويد

[1]- عزيز سامح ألتر، المرجع السابق، ص 406.

[2]- قرياش بلقاسم، المرجع السابق، ص 66.

[3]- Mahfoud Kaddache, L'Algérie durant la période ottomane, Office des publications universitaires, Alger, 1998, p239.

بالمسدس، وأحدث البشائع في الثوار الدرقاوة، حتى أن الرجل كان إذا ادعى محبة الدرقاوي قام وقطع رأسه في الحين، كما كان يقطع رأس كل من يعارضه[1]، ويذكر الزياني عن ظلم الأتراك أن الدرقاوي لما ذهب لقائد الطريقة الدرقاوية في المغرب، قال له: "إن بوطننا قوم يقال لهم الترك، لا شيء لهم من دعائم الإسلام ويظلمون الناس ولا يعبؤون بالعلماء والأولياء..."[2].

- كثرة الثورات التي أرهقت سلطة الدايات وأدت إلى بداية تفكك الدولة وانهيارها، كما أشرنا سابقا بسبب الظلم والتعسف، مثل: ثورة ابن الأحرش 1803م وثورة الدرقاوي سنة 1802 وثورة التيجاني سنة 1826م.
- انتشار قتل الدايات لأسلافهم وتولي السلطة بدلا عنهم، حتى بلغ الأمر بالديوان إلى أنه لم يجد من يحكم الجزائر، ففي سنة 1808م ثار الإنكشارية ضد الداي أحمد ودخلوا قصر الجنينة وأطلقوا عليه النار ثم قطعوا رأسه، ولأن جميع القادة رفضوا تولي المنصب فإنه بقي شاغرا، ولذا قرر الإنكشارية الدخول إلى القصر وأول من يصادف طريقهم يعيّنوه دايا على الجزائر، فالتقوا مع غسال الموتى علي فنصبوه دايا على الجزائر، ولم يمضي على توليه الحكم سوى أشهر حتى عاث في البلاد فساد وظلما، فقررت الإنكشارية قتله وفعلا قتل علي الغسال سنة 1809م[3].

ولم تقتصر عمليات القتل هاته على الدايات فقد بل كان للبايات نصيب منها، حيث قتل الكثير منهم من قبل الراغبين في السلطة أو لكثرة جورهم، "فبعد أن رفض الباي بوكابوس الالتحاق بالحرب الجزائرية التونسية، خوفا من الداي لأنه قتل شقيقه، وأمر الباي سنة 1813م بقتل جميع الأتراك حتى أنه قتل منهم ثلاثمائة وخمسون قتيلا، فانقلب عليه رجال مخزنه وألقوا القبض عليه وسلموه لقائد الحملة عمر آغا الذي قام بقتل جميع أبنائه وحشو جلده قطنا وأرسله إلى داي الجزائر[4].

---

[1]- محمد بن يوسف الزياني، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تح. محمد العبدلي، عالم المعرفة، الجزائر، 2012، ص287.

[2]- المصدر نفسه، ص 272.

[3]- عزيز سامح ألتر، المرجع السابق، ص 594.

[4]- عبد القادر بلغيث، الحياة السياسية والاجتماعية بمدينة وهران خلال العهد العثماني، مذكرة لنيل درجة الماجستير، جامعة وهران، 2014، ص77.

- تحول جنود البحرية الرياس من مقاتلين وغازين للسواحل المسيحية إلى مرتزقة تبحث في الكثير من الأحيان على المال والغنائم، وهذا حتما ما أثر في عائدات الغنائم والاقتصاد الجزائري.
- تناقص عدد الأسرى أواخر عهد الدايات بشكل كبير، فبعد أن كان عددهم الآلاف خلال القرن السابع عشر لم يبقى في الجزائر "خلال الاحتلال الفرنسي سوى 120 أسيرا"[1].
- إن نظاما كان يقوم على عائدات الغنائم لا بد له أن ينهار في يوم من الأيام، وهذا ما حدث عندما تراجعت عائدات الغنائم البحرية أواخر العهد العثماني، أين بدأ الاقتصاد الجزائري في الانهيار بشكل رهيب، حيث كثرت الثورات والانقلابات في السلطة كما رأينا، حيث يمكن أن نلاحظ في الجدول التالي "كيف تراجعت عائدات الغنائم بشكل مخيف خلال أواخر عهد الدايات"[2]:

نسبة العائدات البحرية في الاقتصاد الجزائري 1798-1815م:

السنوات	إجمالي المداخيل	العائدات البحرية	نسبة المداخيل البحرية
1798-1799	3.340.000 فرنك	870.000 فرنك	%25.8
1802-1800	2.770.000 فرنك	270.000 فرنك	%9.7
1810-1804	2.625.000 فرنك	125.000 فرنك	%4.8
1815-1811	3.125.000 فرنك	625.000 فرنك	%20

[1] -Robert Davis, Esclaves Chrétiens, Maitres Musulmans, L'esclave Blanc en Méditerranée 1600-1800, Tr. Manuel Tricoteau, Ed. Jacqueline Chambon, Paris, 2006, p.315.

[2] -Daniel Panzac, Barbary Corsairs, The End of a Legend 1800-1820, Tr. Victoria Hobson, LEIDEN: Brill, 2005, p.131.

- في الوقت الذي كانت تتطور فيه السفن الحربية الأوروبية، وذلك باختراع مدفع الهاون والسفن العالية Ship of the Line، كانت الجزائر لا تزال تستخدم سفنا من نوع الغليوطة والشباك والبريك والغراب... إلخ وهي سفن كانت تستخدم خلال هاته الفترة في أوربا بالصيد البحري[1].
- إنهاء الوجود الإسباني على السواحل الجزائر ية، وذلك بتحرير وهران سنة 1792م، وتوحيد الجزائر واستقلالها عن أي احتلال أوربي في المنطقة.

[1]- قرياش بلقاسم، المرجع السابق، ص 164.

المحاضرة السادسة: تطور نظام الحكم في المغرب الأقصى في فترة السعديين والعلويين.

كان لتهالك الدولة الوطاسية وسقوط غرناطة سنة 1492م، أثر في تشكل نظام جديد بدأه البرتغاليون بالإستيلاء على الجنوب البرتغالي ووصلوا حتى بلغوا سوس، وهذا كّله في غفلة من الوطاسيين الذين كانوا منشغلين عن الوضع بالصراع الداخلي ومحاربة الإسبان في الشمال، الأمر الذي استلزم حاجة العامة في الجنوب الغربي للمغرب الأقصى المقابل للمحيط الأطلسي، إلى سلطة توحدهم لمقاومة البرتغاليين وطردهم، ليلتفوا في النهاية حول الدولة السعدية التي لم تحرر فقط الجنوب المغربي، بل أقامت دولة أسقطت الوطاسيين وحكمت المغرب الأقصى.

1- الدولة السعدية:

يذكر المؤرّخون أنّ نسب الدولة السعدية يرجع إلى أسرة شريفة تنحدر من نسل محمد الزكية[1]، "ويذكر السلاوي أن سبب قدوم السعديين هو أن أحد الصلحاء قد أشار على أهل المنطقة التي كانت أرضهم قليلة الخصوبة، بأن يستقدموا إليهم أحد الأشراف من الحجاز لعل الأرض تنبت من بعد ذلك زرعا"[2]. وقيل أن سبب تسميتهم بالسعديين أن "أعداءهم كانوا ينسبونهم إلى بني سعد بن بكر، كي ينزعوا عنهم النسب الشريف"[3] فلا يتبعهم العامة.

وتتفق المصادر أن فريقا من السعديين الأوائل قد نزحوا إلى وادي درعة في الجنوب المغربي مطلع القرن الرابع عشر، وهناك بدأوا في نشر دعوتهم عن طريق الطرق الصوفية في الجنوب المغربي، وربما يعود استخدامهم لهاته الطرق كون أغلب

[1]- صلاح العقاد، المغرب العربي في التاريخ الحديث والمعاصر، ط06، المكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، 1993، ص50.

[2]- الناصري، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، الدولة السعدية، تح. جعفر الناصري، محمد ناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1955م، ج5، ص03.

محمود عاشور عبيد الحسيناوي، موقف الدولة السعدية من مسلمي الأندلس بعد سقوط غرناطة 1510-1659م، مذكرة لنيل درجة الماجستير، جامعة ذي قار، 2013م، ص26.

[3]- الناصري، المصدر السابق، ص 06.

ساكنة المغرب خلال هذا العصر كانوا من الصوفية، ولهذا فقد أرى السعديون أن تجميع الحشود حولهم يجب أن يتم بداية تحت طائلة الوازع.

وهكذا بدأ عودهم يشتد ويقوى، خاصة وأنهم القوا القبول عند فئة كبيرة من الجنوب المغربي، وورد في مؤلف مجهول: "كانوا في بداية أمرهم وظهور جهادهم من سوس موال محمد الشيخ وأخيه أحمد الأعرج... وقد حدّث عنهم أهل البلاد أنهم كانوا ذات يوم يقرؤون بالمحاضر بين يدي المعلم... فإذا بديك طار ونزل على رأس مولاي محمد الشيخ... فخرج الفقيه لأهل القرية وأعلمهم... أنه سيكون لهذين الشابين شأن عظيم وأمرا على أهل المغرب"[1].

ومع مطلع القرن السادس عشر بدأ البرتغاليون في التوسع على السواحل الجنوبية للمغرب، بما في ذلك منطقة سوس، وإقامة قواعد ومراكز وحاميات عسكرية عليها، خاصة بعد اكتشاف العالم الجديد والتعرف على طريق الهند، وفي الوقت الذي استكانت فيه قبائل المناطق الساحلية إلى الاستسلام والدخول تحت الحماية البرتغالية، حيث تثبت إحدى الرسائل "التي وجهها أهل هاته المناطق إلى الملك البرتغالي، يخبرونه فيها عن مدى سرورهم وفرحهم لما علموا أن الملك البرتغالي قد عزم على إقامة قوات عسكرية ببلادهم، ويشكون له غضب جيرانهم العرب من قرارهم نحو البرتغاليين"[2].

وبهذا أصبح لزاما على أهل منطقة سوس إيجاد حاكم يحميها من هذا الغزو البرتغالي، فيذكر صاحب زهرة الشماريخ "أن سبب قيام أبي عبد الله القائم أن أهل سوس أحاط بهم العدو... واستحكمت شوكة البرتغاليين فيهم وبقي المسلمون في أمر مريج... لأن بني وطاس فضلت ريحهم يومئذ في بلاد السوس... فذهب أهلها إلى الشيخ الصالح أبي عبد الله محمد بن مبارك الأقاوي نسبة إلى آقة من بلاد السوس... فامتنع من ذلك، وأشار إليهم إلى أبي عبد الله..."[3]، الذي ولوه عليهم سنة 1509.

---

[1]- مجهول، تاريخ الدولة السعدية التكمدارتية، تح: عبد الرحيم بن حادة، دار تينمل، مراكش، 1994، ص13.

[2]- عبد الكريم كريّم، المغرب في عهد الدولة السعدية، منشو ارت جمعية المؤرخين المغاربة، الرباط، 2006، ص 35.

[3]- الناصري، الاستقصا...، ج05، المصدر السابق، ص 07.

وبعد وفاة القائم بالله سنة 1517م انتقل الحكم إلى ولديه محمد الشيخ وأحمد الأعرج، فتمكنا من طرد البرتغاليين من آسفي وآزمور في الجنوب بين سنتي 1529- 1541م، وغم أن الملك الوطاسي الملقب بالبرتقالي قد عرض على السعديين مدينة مراكش، إلاّ أن محمد الشيخ رفض الأمر ودخل في صراع مع شقيقه والملك الوطاسي، ذلك أنه كان يطمع إلى الاستيلاء على المغرب الأقصى قاطبة، فدخل فاس سنة 1549م وأعلن نفسه سلطانا[1].

يعتبر المؤرخون المغاربة محمد المهدي هو المؤسس الفعلي لدولة السعديين، لتبدأ مرحلة جديدة من التوسع والجهاد، فخلال "الفترة الممتدة بين سنتي 1549م- 1550م تمكن السعديون من استعادة أصيلة والقصر الصغير من البرتغاليين، حيث لم يتبقى بعد ذلك للبرتغاليين سوى طنجة وسبتة ومزغان تقوم بالدفاع عنها حاميات ضعيفة لا يتجاوز عدد أفرادها 2500 رجل"[2].

ورغم القوة التي امتازت بها الدولة السعدية في بداية نشوؤها إلاّ أن النزاع الداخلي ومشاكلها الخارجية، عجلت في ظهور بوادر انهيارها، "بداية باستقبال حسن باشا الملك الوطاسي المهزوم واعترافه بع سلطانا على المغرب، ثم شنّ صالح باشا حملة على فاس لإرجاع أبي حسون الوطاسي إلى حكم المغرب سنة 1554م، "أين تمكنوا من قتل محمد الشيخ سنة 1557"[3]، وكرد على الفعل العثماني فإن السعديين قاموا بقتل أبي حسون والقضاء نهائيا على سلطة الوطاسيين في المغرب[4].

تولى مولاي عبد الله الغالب السلطة في ظروف صعبة، حيث نشب صراع بينه وبين أشقائه الثلاثة على الملك خاصة بعد تحالفه مع البرتغاليين، وهكذا لجأ الإخوة الثلاثة عبد الملك وأحمد وعبد المؤمن إلى الجزائر، حيث غزى حسن "باشا في عهده

[1]- صلاح العقاد، المرجع السابق، ص 51.
[2]- المرجع نفسه، ص 51.
[3] -Saʿdids", Encyclopaedia of Islam, T.08, Brill, 1910.
[4]- عبد الحميد الأرقش، دلندة الأرشق، جمال بن طاهر، المغرب العربي الحديث من خلال المصادر، مركز النشر الجامعي- ميديا كوم، تونس، 2003، ص20.

فاس سنة 1558 والتقى الجمعان في معركة وادي اللبن"[1] حيث تمكن من الانتصار على الجزائريين، ولإبقاء العثمانيين على الحياد راح الغالب يدفع مبالغ طائلة لهم".

توفي الغالب بالله سنة 1574م حيث تولى الحكم خلفا عنه محمد المتوكل، الذي تحالف مع البرتغاليين أملا في صد التوسع الجزائري-العثماني، فتحالف ضدّه كلّ من أحمد المنصور وعبد المؤمن وعبد الملك وسارعوا إلى نجدة الجزائريين، وهكذا مدّ حاكم الجزائر الأعمام الثلاثة السلاح والمؤن ضد ابن أخيهم المتوكل[2].

انطلقت حملة من الجزائر يقودها حاكم الجزائر والأعمام الثلاثة فدخلوا فاس في حين استقر المتوكّل في مراكش، واستمر يحارب أعمامه عامين كاملين، ليفرّ بعدها نحو البرتغاليين في طنجة، وتحالف معهم بشرط أن يمنحهم المدن الساحلية على أن يقيم المتوكل دولته فيما تبقى من المناطق الداخلية المغربية، وهكذا وقعت معركة وادي المخازن التي كان الخاسر الوحيد فيها هو المغرب الأقصى، أين لقي في المعركة ثلاثة ملوك حتفهم وهم الملك عبد الله والملك البرتغالي سيبستيان والمتوكل.

ورث أحمد المنصور حكم الدولة السعدية، ويعتبر حكمه أحد أزهى عصور الدولة السعدية حيث توسعت الدولة، ففي "عهده غزى المنصور السودان الغربي وبلاد غانة بين سنتي 1590-1591م، أين بدأ عصر جديد من التجارة الصحراوية، بالإضافة إلى تهاطل ثروة الذهب عليه، وكوّن المنصور من أبناء السودان ما يعرف بجيش الرقيق"[3].

لكن موت المنصور سنة 1603م أدى إلى تقهقر رهيب للدولة السعدية، حيث تراجع نفوذها ودخلت مرحلة الصراعات الطويلة بين الأبناء، وحتما فإن هذا قد أثر

[1]- مبارك الميلي، ج3، المرجع السابق، ص93.

[2]- ينظر:

Berthier Pierre, La bataille de l'oued el-Makhazen : dite bataille des Trois Rois (4 août 1578), Ed. du C.N.R.S., Paris, 1985.

[3]- عبد الحميد الأرقش وآخرون، المرجع السابق، ص 22.

بشكل جلي على الدولة، بالإضافة إلى رفض الكثير من قبائل سوس الانصياع لمطالب المخزن المرهقة.

دارت المعارك بين الأشقاء حيث انهزم المولى زيدان أمام جيش أخويه فارس والمأمون في صراعهم على فاس، حيث دخل المأمون فاس واستقل بها لنفسه بعد أن انقلب على شقيقه فارس، في حين التجأ المولى المأمون زيدان إلى الأتراك في تلمسان ثم إلى سجلماسة التي بايعه أهلها سنة 1607م[1].

هاجم زيدان فاس ودخلها لفترة من الزمن، أين أعاد أبو فارس ومحمد الشيخ فتحها سنة 1609م، ولم تتوقف الصراعات عند هذا الحد أين انتقلت للأبناء مجددا فقتل عبد بن المأمون عمه فارس سنة 1609م، واستقل لفترة بالحكم، أين تمكن زيدان من الاستيلاء على العرش وبقي على رأسه إلى غاية سنة 1627م، أين خلفه ابنه عبد الملك بن مروان الذي قتل سنة 1631م، ثم تولى خلفا له الوليد بن زيدان الذي قتل هو الآخر سنة 1636م، ثم الشيخ بن زيدان إلى أن قتل عام 1653م، ثم ابنه العباس أحمد الذي قتل عام 1658م[2].

وهكذا فإن هذا الصراع والتقتيل كان لا بد من أن يفجر الدولة وينهك طاقتها ويظهر قوى جديدة، فظهرت حركات دينية تطالب بالجهاد، وتوجيه الرأي نحو الخارج، فظهرت حركة أبي محلي سنة 1611م، والحركة العياشية تحت قيادة محمد العياشي التي انكسرت شوكته سنة 1641م، ثم الحركة الدلالية التي انطلقت من منطقة الدلاء تحت قيادة زعيمها محمد بن أبي بكر أين تمكنت من هزيمة الجيش السعدي في معركة بوعقبة[3].

وأعلن مولاي الرشيد نفسه سلطانا على المغرب بعد مقتل آخر السلاطين السعديين سنة 1659م، أين احتل مراكش سنة 1668م، وأعلن قيام دولة العلويين[4]،

[1]- عبد الحميد الأرقش وآخرون، المرجع السابق، ص 23.
[2]- شوقي عطا الله الجمل، المرجع السابق، ص 197.
[3]- عبد الحميد الأرقش، المرجع السابق، ص 26.
[4]- صالح العقاد، المرجع السابق، ص 26.

وهكذا انتهى عهد السعديين التي كانت أول دولة عربية شريفة تحكم المغرب منذ دولة الأدارسة[1].

2- الدولة العلوية 1659- 1912م:

يرجع أصل العائلة العلوية إلى الحجاز حيث انتقلوا إلى المغرب الأقصى في نفس الفترة التي انتقل فيها السعديون، ويرجع المؤرخون مؤسسها إلى الشقيقين محمد الشريف والرشيد[2].

شبّ الخلاف بعدها بين الأخوين، فسار المولى محمد من سجلماسة إلى أخيه الرشيد يقصد مقاتلته والقبض عليه، غير أن المولى محمد هو من توفي في معركة أنقاد سنة 1664م، وهكذا انتقلت السلطة إلى شقيقه الرشيد[3].

بدأ الرشيد طريقه في عملية تشييد وبناء الدولة العلوية، فقضى على تمرد ابن أخيه المولى ثم وجه أنظاره صوب فاس، حيث يذكر صاحب النزهة: "أن أهلها قد أصروا على مبايعته بعد أن حكم السيف في رؤسائها وأفناهم قتلا، فتمهدت البلاد واجتمعت الكلمة"[4].

دخل الرشيد فاس بعد أن حارب الشيخ أرارس سنة 1666م، وهكذا أعلن نفسه سلطانا على المغرب الأقصى، حيث خضعت له بسقوطها كل من أنجاد وتازا وتافيللت والريف، ثم استمر العلويون في بسط نفوذهم فأخضعوا كلا من إقليم طنجة ومراكش عام 1668م[5].

---

[1]- ينظر:

Rivet Daniel, Histoire du Maroc: de Moulay Idrîs à Mohammed VI, Fayard, 2012. :

[2]- محمود علي عامر، المرجع السابق، ص 77.

[3]- محمد بن محمد المشرفي، الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية وعد بعض مفاخرها، ج1، تح. إدريس بوهليلة، دار أبي 20 الرقراق، الرباط، 2005، ص266.

[4]- عبد الحميد الأرقش وآخرون، المرجع السابق، ص 28.

[5]- محمود السيد، تاريخ المغرب العربي -ليبيا-تونس- الجزائر - المغرب- موريتانيا، مؤسسة جامعة الشباب، مصر، 2000م، ص243.

خلف إسماعيل شقيقه الرشيد إثر وفاته سنة 1672م، وبقي على هرم السلطة أكثر من خمسين سنة أي بين سنتي 1672-1727م، حيث اشتد عود الدولة العلوية في عهده، فتمكن من التغلب على معارضيه مثل: شقيقه هارون في تافيللت وابن أخيه أحمد بن محرز في مراكش والسوس، ودخل في صراع مع العثمانيين في الجزائر[1].

وقام إسماعيل بنهج طريق السلطان السعدي المنصور، فأقام جيشا منظما من السودان، وضم إليه الأسرى المسيحيين، ويذكر فرانسيس بروك "أن السلطان إسماعيل اشترى سنة 1688م ثلاثمائة أسير فرنسي من الجزائر، ورفض دفع مبالغ شرائهم وطرد البعثة الجزائرية مهددا إيّاهم بقطع رؤوسهم، فرد عليه الداي بأن أرسل جيشا من خمسين ألف مقاتل، تمكن من هزيمة جيش السلطان ودحرهم في تازة"، الأمر الذي دفع السلطان إلى الرضوخ ومنحهم ثمانية وأربعين بغلا محملة بالذهب وأحصنة وأثاثا تبلغ قيمته مائتي ألف كراون"[2].

بلغ الجيش المغربي في عهد السلطان إسماعيل مائة وخمسين ألفا، وبهذا الجيش استطاع السلطان استعادة الكثير من الثغور المغربية التي كانت بيد الإسبان، فاسترجع سنة 1681م المعمورة واستولى على طنجة التي كانت بيد الإنجليز سنة 1684م حيث نقل إليها سكان الريف[3]، واستولى أيضا على لارش سنة 1689م وأرزيلا سنة 1691م، كما حرر مليلة[4].

---

[1]- محمود السيد، المرجع السابق، ص 244.

[2] - Francis Brooks, Barbarian Cruelty, Being A True History of the Distressed Condition of the Christian Captives under the Tyranny of Mully Ishmael Emperor of Morocco, and King of Fez and Macqueness in Barbary, In which is likewise given a particular Account of his late Wars with the Algerines. The manner of his Pirates taking the Christians and Others. His breach of Faith with Christian Princes. A Description of his Castles and Guards, and the Places where he keeps his Women, his Slaves and Negroes, With a particular Relation of the dangerous Escape of the Author, =and two English Men more from thence, after a miserable Slavery of ten Years, London: Printed for J. Salusbury at the Rising-Sun in Cornhil, and H. Markman at the King's Arms in the Poultry, 1693, P85.

[3]- ينظر: Childs John, The Army, James II and the Glorious Revolution, Manchester, University Press, 1980.

[4]- محمود السيد، المرجع السابق، ص 30.

لكن وبمجرد وفاة المولى إسماعيل حتى ظهرت الانقلابات فتمرد عبيد البحاري الذين كانوا يشكلون جزءا هاما من الجيش المغربي، وأصبحوا يملكون اليد الطولى في تعيين وعزل السلاطين، فقد عزلوا السلطان عبد الله خمس مرات كاملة بين سنتي 1727-1757م، أين عاشت البلاد أزمة عرفت بأزمة الثلاثين سنة[1].

وما إن تولى المولى السلطة حتى همّ في إضعاف طائفة جيش العبيد، وفرّق شوكتهم بين القبائل، فيذكر الناصري بقوله: "قصد بتفريقهم دفع غائلتهم وهوين عصبيتهم... فاستراحت الدولة من شرّهم"[2].

ولتنويع الدخل راح المولى محمد ينشئ الموانئ للتجارة الخارجية، حيث عقد المعاهدات مع الدول الأوروبية، ورغم الاستقرار الذي ساد عهده إلاّ أن ابنه اليزيد ثار عليه، حيث استولىّ على الحكم بعد وفاة والده سنة 1790م، ولم تمر سوى سنتين أين انتفضت ضدّه هو الآخر قبائل الحوز وقتلته سنة 1792م، ونصّبت مكانه المولى هشام[3].

وهكذا انقسمت البلاد وأصبحت قبائل متناحرة، فعيّنت بلاد الهبط سليمان شقيق السلطان هشام حاكما عليها، فجعل فاس مركزا لحكمه وعزل شقيقه هشام الذي ورغم محاولات التمرد التي قادها إلاّ أن كلّها باءت بالفشل الذريع، حيث بقي على سدة الحكم لغاية سنة 1822م. وما إن توفي سليمان حتى بدأ التدخل الأوروبي في المغرب يزداد بشكل واضح وجليّ، "وقد تزامن التدخل الأوروبي في الشأن المغربي مع الاحتلال الفرنسي للجزائر سنة 1830م، لكن مقاومة الأمير عبد القادر خلال الفترة بين سنتي1832-1848م أخرت احتلال المغرب".

وفي سنة 1859م أعلن الإسبان الحرب على المغرب، وقاموا باحتلال تطوان وذلك بعد أن ألحقوا الهزيمة بالجيش المغربي، ثم عقدوا الصلح مع السلطان مقابل أن

[1]- محمود علي عامر، المرجع السابق، ص 30.
[2]- ينظر: الناصري، ج06، المرجع السابق.
[3]- محمود علي عامر، المرجع السابق، ص 32.

يدفع مليون ريال لإخلاء المدينة، وما إن احتل الفرنسيون تونس سنة 1881م حتى بدأوا في تجهيز العدّة لاحتلال المغرب الأقصى[1].

وفي عام 1908م استطاع الفرنسيون من تدبير فتنة وسط العرش المغربي، حيث أوعزوا إلى عبد الحفيظ شقيق السلطان عبد العزيز بالانقلاب على شقيقه وتولي الحكم مكانه، وهكذا أصبحت مراكش تحت الحماية الفرنسية، وأمام هذا الوضع تنازل السلطان لابنه عبد الحفيظ عن الحكم نتيجة اتفاق وقعه الفرنسيون معه سنة 1912م[2].

[1]- محمود السيد، المرجع السابق، ص 250.
[2]- المرجع نفسه، ص 251.

المحاضرة السابعة: تطور نظام الحكم في تونس.

لقد ظلت تونس سجالا بين الأتراك والإسبان، بداية بتوسع الأخوين بربروسة واستقرارهما في جزيرة جربة، تلك الهدية التي وهبها لهما الملك الحفصي نظير الغنائم التي كانوا يدخلونها البلد، بالإضافة إلى النسبة التي كان يتحصل عليها الملك عند دخول كل سفينة يأسرها الأخوين تونس، لكن إحساس الحفصيين بخطر الأخوين جعلهم ينئوون بجنبهم عنهما ويتحالفوا مع الإسبان، فظلت تونس تحت سطوة الإسبان لغاية سنة 1534 حين استعادها العثمانيون منهم ونصّبوا حاكما تركيا، لكن الإسبان استعادوها مجددا سنة 1535م بعد أن أوقعوا في أهلها التنكيل.

بقي الإسبان في تونس حتى سنة 1574م، عندما حررها علج علي وسنان باشا، وكان هذا التاريخ هو بداية التواجد العثماني في تونس والذي سيبقى إلى غاية انتصاب الحماية الفرنسية عليها سنة 1881م.

شهدت تونس تحت حكم العثمانيين أنظمة حكم مختلفة، امتدت على طول ثلاثة قرون كاملة.

1- نظام الباشاوات 1574-1591م:

يعتبر نظام الباشاوات أقصر أنظمة الحكم في تونس، حيث حكم البلاد خلال هاته الفترة عدّة باشاوات هم: حيدر باشا (1574-1575م)، ورجب باشا (1575-1579م)، وجعفر باشا (1579-1581م) ومصطفى باشا (1581-1585م) وحسن باشا (1585-1587م)، ومحمد باشا (1587-1590م) وآخرهم جعفر باشا 1591م.

ما إن فتح سنان باشا تونس سنة 1574م، حتى أنشأ بها ديوانا يجمع مسؤولين لتسيير شؤون البلاد[1]، وكان السلطان العثماني هو من يرسل الباشا إلى تونس، حيث يقيم فيها مدة ثلاثة سنوات، وتقام الخطبة على المنابر باسم السلطان العثماني؛ وأما الجيش

[1]- فاطمة الزهراء آيت بلقاسم، الحكم العثماني في الجزائر وتونس دراسة مقارنة، دورية كان التاريخية، ع37، سبتمبر 2017م، ص11.

الإنكشاري المتواجد في المدينة فكان قو امه ثلاثة آلاف جندي[1]؛ في حين يذكر حسين خوجة "أن سنان باشا قد ترك وراءه أربعة آلاف عسكر وجعل عليها المعزم حيدر باشا حاكما، وجعل رمضان باشا لاستجلاب جبايتها، وعيّن المولى حسن قاضيا عليها"[2].

كان الهدف من تعيين الباشا ثلاثة سنوات هو خوف العثمانيين من استئثار الحاكم بالسلطة لنفسه، غير أنّ مدة الثلاث سنوات لم تكن دائما ثابتة، حيث أرى بعضهم الاستمرار حتى بعد انقضاء فترة حكمه.

ينقسم الجيش التونسي إلى فرق عديدة، تتكون كل فرقة من مائة داي -أي جندي-، ويرأس كل فرقة آغا، ويرى بعض المؤرخين أن الجيش الإنكشاري كانت مهمته حماية الأقلية التركية في تونس، غير أنّ قولا مثل هذا لا يستند دائما إلى الصواب، حيث لعب الجيش دورا بارزا في الذود عن البلد من الهجمات الخارجية، وفي أحيان أخرى بلغ به الأمر إلى اختيار المصلحة الداخلية على الخارجية أو حتى الولاء للسلطان نفسه.

مستشارو الباشا هم خمسة[3]:

- الخازندار
- خوجة الخيل
- الأغا
- والبيت مالي
- وكيل الخرج

اهتم الباشا في الغالب بجمع الثروة، حيث كان يصل عند انتهاء عهدته إسطنبول محملا بالذهب والفضة، وهذه الغفلة جعلت جيش الإنكشارية ينمو ويزداد سطوة حتى أصبح ديوان الإنكشارية أداة تمتلك السلطة الحقيقية في يد القادة العسكريين.

[1]- عبد الحميد الأرقش وآخرون، المرجع السابق، ص 55.

[2]- حسين خوجة، بشائر أهل الإيمان في فتوحات لا عثمان، المطبعة الرسمية العربية، تونس، 1908، ص ص 02-03.

[3]- المصدر نفسه، ص 03.

وخلق هذا الصراع بدوره سطوة القبائل العربية في الداخل، فيذكر ابن أبي الضياف: "أن البلاد قد استحوذ عليها الأعراب كأولاد سعيد بالوسط والجبالية أمثال: عمدون والوسلاتية وغيرهم"[1].

وأمام الوضع العام الذي ساد البلاد أعلن أربعون دايا الثورة ضد الباشاوات سنة 1791م، حيث اتفقوا مع وكيل الخرج طبال رجب أين أبقى مخزن الأسلحة مغلقا الأمر الذي جعل أعضاء الديوان غير قادرين عن الدفاع عن أنفسهم"، وعيّنوا إبراهيم ولد علي حاكما على البلاد، واضطر الباب العالي الرضوخ إلى الوضع الجديد، حيث اعترف بحكم الدايات[2].

2- نظام الدايات 1591-1631م:

وصل الدايات إلى الحكم بعد انقلاب سنة 1591م، أين شهد هذا العهد استقرارا سياسيا ونشاطا بحريا ملحوظا، خاصة مع وجود رياس متميّزين أمثال الرايس وارد الذي فرّ من البحرية الإنجليزية، واعتنق الإسلام[3].

ويذكر المنتصر في نوع من الأسطورة عن انقلاب سنة 1591م قائلا: "وحدّثني من أثق به قال كان في زمان بولكباشات في زمن ابتداء الشيخ، أنّهم كفوا الشيخ وضاموه في الرعية وانتهوا معه غاية الجسارة، قال: كان يوم من الأيام قال الشيخ رضي الله عنه للفقراء، يا فقراء أقلعوا البلاط متع الزاوية المفروش واشتروا لنا رؤوس الكباش، فلما اشتروا رؤوس الكباش قال لهم أطبخوهم فطبخوهم وأمرهم بأكلهم؛ فلما كان غدات من أكل الرؤوس وقطع البلاط، اجتمع الجيش كله في القصبة وأقاموا على البولكباشيات وعطوهم الحديد[4] حتى لم يبق منهم أحد"[5].

---

[1]- ينظر: ابن أبي الدينار، المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس، تح. محمد شمام، المكتبة العتيقة، تونس، 1967م.

[2]- شوقي عطا الله، المرجع السابق، ص 109.

[3] -Vitkus Daniel, Three Turk Plays from Early Modern England: Selimus, a Christain Turned Turk, and the Renegado, Columbia University Press, New York, 2013, p.24.

[4]- الحديد: الرّصاص.

[5]- توفيق البرشوش، جمهورية الدايات في تونس 1591- 1675م، مجموعة أيام الناس، (د.ت)، ص132. نقلا عن: المنتصر ابن المرابط، نور الأرماش في مناقب أبي الغيث العشاش، المكتبة الوطنية التونسية، ر،60408. و.34.

ويذكر بعض المؤرخين أن نظام الدايات هو عبارة عن نظام ديمقراطي عسكري، غير أن وصول الداي عثمان باي إلى السلطة عجل في تحول هذا النظام ليصبح نظاما أوتوقراطيا عسكريا، أين أصبح الداي ذا صالحيات كبيرة وشبه مطلقة[1].

كان آخر الدايات الأقوياء هو الداي أحمد خوجة ويُذكر في الأسطورة "أن أحمد خوجة كان قد دخل حماما ببلدة المذكور صناب، بين يدي الطيّاب وكان الطيّاب ذا خبرة بفن الفراسة، فقال له: يا هذا إنّك إن خرجت من بلدك هذه تتولى سلطنة، فلما خرج من الحمام سافر إلى إسطمبول فوجد بها غلائط تونس، فركب فيها وقدم إلى تونس وكان من أمره ما كان..."[2].

كان الداي عثمان تركي المولد، تولى حكم تونس خمسة عشر سنة، استغل فيها سلطته على الإنكشارية ليتخطف الحكم لنفسه[3]، حيث كان يعلم جيّداً خبايا الجيش الإنكشاري حيث ترقى في الرتب تدريجيا طيلة السنوات التي قضاها في تونس، وحكم البلاد وعمره خمسين سنة[4].

وشهد عهد عثمان داي سيطرة تونس على الجبهة الداخلية ونشاطا بحريا في المتوسط، "خاصة مع قدوم رجال بحر أقوياء مثل وارد الإنجليزي، والذي علّم التونسيين طرق الولوج إلى المحيط الأطلسي" فكثرت الغنائم، أما داخليا فقد "تمكن القائد رمضان باي من قمع القبائل المتمردة مثل: أولاد شنوف وأولاد سعيد وألزمهم بدفع الضريبة[5].

خلف الداي عثمان على هرم السلطة الداي يوسف بين سنتي 1610-1637م، وكان أصله من الجيش الطرابلسي، حيث يذكر المنتصر ابن المرابط "أن الداي يوسف حكم عليه بالنفي من طرابلس إلى تونس"[6].

---

[1]- عبد الحميد الأرقش وآخرون، المرجع السابق، ص 57.

[2]- توفيق البرشوش، المرجع السابق، ص 136.

[3] -Brevés, Relation de Voyages, Paris, 1628, p309.

[4]- توفيق البرشوش، المرجع السابق، ص 137.

[5]- عبد الحميد الأرقش وآخرون، المرجع السابق، ص 58.

[6]- توفيق البرشوش، المرجع السابق، ص 136.

برز النشاط البحري في عهده، وفي المقابل اشتد عود البايات، حيث لعب مراد باي (1612-1631م) دورا بارزا في منصبه، وجعل منه منصبا وراثيا أين خلفه ابنه حمودة بك (1631-1659م)[1]. ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد حيث انتشر الفساد وعمت الرشاوي، ويوضح الجدول الآتي أصحاب النفوذ حسب قيمة الهدايا التي كانت تمنح لهم في سنة 1629م:

1- يوسف داي: 945 ليرة	2- أسطا مراد: 480 ليرة
3- الباشا: 198 ليرة	4- كاهية الباشا: 62 ليرة
5- آغة الديوان: 62 ليرة	6- ضبّاط الديوان: 135 ليرة
7- كاهية الداي: 120 ليرة	

وأمام تنامي نفوذ البايات أصبح الباب العالي أمام حتمية الإقرار بهذا النظام الجديد، فاعترف السلطان العثماني بالباي سنة 1631م، "خاصة مع تنامي نفوذ الباي في الداخل حيث لم تتبقى للداي سلطة إلا على حاضرة تونس وضواحيها"[2].

وما إن انتهى حكم الداي أحمد خوجة، حتى شهدت تونس ضبابية فيمن سيتولى السلطة بعده، وكما أشرنا سابقا فإن خلال هاته الفترة كانت سلطة البايات في تعاظم حتى أصبحت سلطة الباي جاهزة لخلافة الدايات.

3- البايات المراديون 1635-1705م:

شهد الربع الأول من القرن السابع عشر ظهور بايات أقوياء تمكنوا من السيطرة على المناطق الداخلية، ورغم أن أول البايات هو رمضان باشا الذي عيّن سنة 1599م، إلاّ أن سطوتهم ونفوذهم الفعلي لم يحدث سوى في عهد الباي مراد كورسو مؤسس الأسرة المرادية"[3]، حيث قام الأخير بقمع ثورات القبائل العربية في الداخل، ونظير

[1]- إسماعيل أحمد ياغي، العالم العربي الحديث، مكتبة العبيكان، ط1، السعودية، 1997، ص138.
[2]- الأرقش وآخرون، المرجع السّابق، ص 59.
[3]- فاطمة الزهراء، آيت بلقاسم، المرجع السابق، ص 11.

جهوده اعترف به السلطان العثماني ومنحه لقب الباشا سنة 1631م، ومنذ هاته اللحظة زاد نفوذ الباي وتوسع حتى لم يصبح نفوذ الداي مشتملا إلا على حاضرة تونس[1].

خلف الباي كورسو ابنه حمودة باشا سنة 1631م، وهكذا أصبح انتقال السلطة وراثيا حيث يحكم الباي مدى الحياة، وتمكن حمودة من القضاء على الثورات الداخلية وصد هجمات فرسان القديس يوحنا على السواحل التونسية[2].

كما قام أيضا بتطوير الجيش وإضعاف طائفة الإنكشارية حيث سمح لأفراد القبائل المخزنية بالانضمام إليه، بالإضافة إلى أنّه جلب من بلاد القبائل الجزائرية عسكر زواوة، فاستتب الأمن واستعادت البلد عافيتها[3].

وخلفه على الحكم ابنه مراد الثاني الذي عرف بقسوته وجوره، حيث تولد في عهده صراع أبنائه على السلطة[4]، لكن ورغم هذا إلا أن البلاد عرفت في عهده وعهد سابقيه انتعاشا في الزراعة والصناعة والعمران وحتى التوسع الداخلي[5].

وقد سعى مراد الثاني إلى اتباع سياسة سابقيه فأضعف الجيش الإنكشاري، من خلال خلع الداي مصطفى قارة كوز في 14 جويلية سنة 1669م، لكن الإنكشارية قامت بتنصيب الحاج شعبان خوجة في نفس اليوم، غير أنّ مراد الثاني خلعه مجدّداً وعيّن مكانه أحمد منشتالي دايا مجددا بتاريخ الـ12 أفريل سنة 1672م[6].

ورغم الثورة التي قادها الإنكشارية مستغلين خروج الباي مراد الثاني، إلا أن الأخير تمكن من قمع الانقلاب في معركة الملاسين في الـ 02 جوان سنة 1673م، ثم قام بعدها بقمع ثورة غير نظامية في طرابلس الغرب وشرع في بناء المشاريع، لكن هذا السعي اصطدم بصراع عائلي على السلطة[7].

---

[1]- الأرقش وآخرون، المرجع السّابق، ص 59.
[2]- إسماعيل ياغي، المرجع السابق، ص 138.
[3]- الأرقش وآخرون، المرجع السّابق، ص 59.
[4]- إسماعيل أحمد ياغي، المرجع السابق، ص 138.
[5]- رشاد الإمام، سياسة حمودة باشا في تونس 1782-1814م، منشورات الجامعة التونسية، 1980، ص49.
[6]- الأرقش وآخرون، المرجع السّابق، ص 60.
[7]- محمود السيد، المرجع السّابق، ص131.

اشتد الصراع العائلي على الحكم بعد وفاة حمودة سنة 1676م، حيث شب خلاف بين شقيقه وابنيه، فاشتعلت الحرب في جميع الأقطار التونسية خلال الفترة الممتدة بين سنتي 1676-1686م، ولعب فيها أتراك الجزائر دورا بارزا، وذلك بدعم أحد الأطراف المتصارعة، وانتهى الصراع بتولي الباي محمد من الأسرة المرادية الحكم بين سنتي 1686-1696م، وهكذا استعاد المراديون حكمهم من جديد رغم التدخل الجزائري[1].

خلف الباي محمد كل من الباي رمضان 1692-1699م، ثم الباي مراد الثالث 1699-1702م، "لكن ضعف هاته العائلة وانتشار الفساد والثورات في عهدها، جعل الشريف إبراهيم يثور ضد الباي مراد الثالث، وينصب نفسه بايا على تونس سنة 1702م، حيث اعترف بسلطته العثمانيون ومنحوه لقب الباشا"[2].

ولم يدم حكم الشريف طويلا حيث اندلعت بينه وبين الجزائريين الحرب، فأسروه وأخذوه معهم سجينا سنة 1705م، وما إن أطلقوا سراحه حتى ثار ضده حسن بن علي، وقتله أتباعه بالقرب من غار الملح في نفس السنة[3].

وهكذا انتهى حكم البايات المراديين ليخلفهم على الحكم البايات الحسينيون بداية من سنة 1705م.

4- الأسرة الحسينية 1705-1882م:

عيّن أعيان وعلماء تونس حسين بن علي بايا عليهم بعد أن أسر الجزائريون الباي إبراهيم الشريف، وذلك خوفا من هجوم الجيش الجزائري مجددا على الأقطار التونسية[4]، التونسية[4]، وما إن عاد إبراهيم الشريف من الأسر حتى همّ أتباع حسين بن علي بقتله، وهكذا آلت مقاليد الحكم للعائلة الحسينية.

---

[1]- محمد حسن العيدوس، تاريخ العرب الحديث، المرجع السابق، ص 182.

[2]- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[3]- مبارك الميلي، المرجع السّابق، ص 184.

[4]- ياسين صنديد، الأسرة الحسينية ودورها في العلاقات السياسية الاقتصادية بين تونس وفرنسا، مذكرة لنيل درجة الماجستير، جامعة غرداية، 2012م، ص21.

ترجع أصول حسين بن علي إلى جزيرة كانديا وهو ما ذهب إليه فريد بك وابن أبي الضياف، حيث جاء والده إلى تونس وارتبط بالجيش في عهد المراديين[1]، حيث أصبح الباي الحسيني يرث العرش ويحكم مدى الحياة، وقضى بذلك على الكثير من الخلافات، وأدى إلى تراجع سطوة الجيش، وهذا ما يمكن أن نلاحظه في تراتبية السلطة في العهد الحسيني التي كانت كالآتي[2]:

-الباي - خزنة دار - كاتب الباي- خوجتا الباي - كاهية دار الباشا - الداي - صاحب الطابع - أغوات الصبايحية الأربعة- باش حانية الترك - باش جانبة أولاد عرب - أودة باشي المماليك - خوجة الديوان- القبطان- كاهية القبطان- ثمانية ريّاس.

أدى تساهل حسين بن علي مع ابنه وابن أخيه علي ومنحه لقب الباشا، إلى ثورة الأخير واستعانته بأتراك الجزائر، فتمكن من الإستيلاء على العرش، وحكم البلاد لفترة فكثر في عهده الظلم والجور[3]. ولم يتوقف أمره عند هذا الحد، أين أرسل جيشا يحاصر علي بن الحسين وأبناءه في القيروان الذي اضطر إلى ملاقاتهم، فقتلوه سنة 1740م واعترف السلطان العثماني بعلي باشا حاكما على تونس[4].

لجأ أبناء علي بن الحسين بدورهم إلى الجزائر، وطلبوا العون من دايها، في حين حكم علي باشا تونس بصرامة وحزم ودموية، فأخذ يقتل مؤيدي عمه وابنيه، "فانتفضت في عهده الإنكشارية مرّتين، وذلك في سنتي 1743م و1752م، وساءت طريقة حكمه حتى مؤيديه الذين انتظروا الفرصة للانقلاب عليه، وزادت شعبية محمد وعلي الفارين إلى الجزائر، اللذين رافقا الحملة الجزائرية على تونس، ودخلاها رفقة الجزائريين إلى تونس في 30 سبتمبر سنة 1756م"[5].

---

[1]- عبد الكريم غلّاب، قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي، ج02، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2000، ص351.

[2]- توفيق بريوش، المرجع السابق، ص 139.

[3]- عبد الكريم غلاّب، المرجع السابق، ص 351.

[4]- فاضل بيات، الدولة العثمانية في المجال العربي...، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2007م، ص30.

[5]- صنديد ياسين، المرجع السابق، ص 23.

وهكذا عادت السلطة إلى أبناء الحسين محمد وعلي ومحمود، ثم آلت السلطة من بعدهم إلى حمودة ابن علي ابن الحسين، الذي كان مولده في الجزائر من أمٍّ علجية حيث وصل إلى الحكم خلفا لوالده بتاريخ الـ31 ماي سنة 1782م[1]. ويصفه ابن أبي الدينار بقوله: "وحال هذا الأمير... ثاقب في الفكر قوي الحزم، صادق العزم، ثابت الجنان... وكان غيورا على الوطن، محبا لأهله... يعفو عن الزلة... مولعا باستكثار الجند من الترك والالتحام بهم والتودد لهم"[2].

ظلّ حمودة باشا يحكم تونس ثلاثين سنة كاملة، وذلك إلى أن وافته المنية سنة 1814م، ويصفه الورتلاني في رحلته إلى تونس قائلاً: "إنّ سلاطين تونس وأمرائها وأصحاب الدولة صرفوا همهم إلى العلم... فبنوا المدارس... وأعزوا العلماء"[3].

وقد شهد عهده استقرارا سياسيا واقتصاديا وحتى علميا، ولكنه عانى من الاضطرابات... فحارب البندقية لاعتدائها على بعض التجار التونسيين سنة 1785م، كما حارب الجزائريين مرّتين، فلم ينتصر في الأولى 1806م وانتصر في الثانية سنة 1807م[4]، وثارت ضدّه الإنكشارية في تونس والحمامات والكاف سنة 1811م، فقضى عليها لكن تسامحه معهم من بعدها جعلهم يطغون في البلد، ويصبحون أصحاب الكلمة العليا فيها[5].

ورغم الهزات التي أصابت عصر حمودة باشا إلى أنه شهد في الغالب استقرارا، حيث يعتبره المؤرخون أحد أفضل البايات الذين حكموا تونس، ويذكر ابن أبي الضياء قائلا: "ولم تزل المملكة في أيامه ينمو عمرانها، ويعظم شأنها، إلى أن فجعت بموته"[6].

---

[1]- ابن أبي الضياف، المرجع السّابق، ص 11.

[2]- المصدر نفسه، ص 12.

[3]- فوزية لزغم، بايات الأسرة الحسينية بتونس، تكوينهم العلمي وأثرهم في الحركة العلمية 1705-1814م، مجلة العبر للدراسات، كان التاريخية، مج03، ع02، سبتمبر2020، ص 211

[4]- عبد الكريم غلاّب، المرجع السابق، ص 35.

[5]- ابن أبي الضياف، المصدر السّابق، ص 58.

[6]- فوزية لزغم، المرجع السابق، ص 231؛ نقلا عن ابن أبي الضياف، المصدر السّابق، ج03، ص 87.

خلف الباي حمودة على العرش محمود بك بن محمد 1814-1824م أين دخلت تونس مرحلة من الضعف والانحلال، شهدت تدخلا أوربيا في الشؤون الداخلية التونسية، "حيث وقّع محمود بك على إقرار بإلغاء تجارة الرقيق"، واشتعل التنافس الأوروبي في عهد خلفه حسين بك 1824-1835م للحصول على الامتيازات في تونس، فحصل البريطانيون على حق صيد المرجان في طبرقة وتونس[1].

ورغم إصلاحات أحمد باي بن مصطفى (1839-1855م)، الذي أنشأ مدرسة حربية ودارا لصناعة السّفن[2]، إلّا أن الوضع الاقتصادي لم يكن في حالة من الاستقرار تساعد على تمويل الإصلاح، ولهذا راح أحمد باي يستدين من الخارج وكان ذلك أحد الأسباب التي سيستخدمها المحتلون بغرض فرض الحماية.

وفي عهد الباي محمد 1855-1859م برز بشكل جلي التنافس الفرنسي-الإيطالي في تونس، حيث سعى كل طرف إلى "ضمّ تونس لسلطته"[3]، وتطورت الأمور في عهد خلفه محمد الصادق باي 1859-1882م، حيث قاد الفرنسيون في عهده حملة عسكرية أرغمت بها الباي على قبول الحماية الفرنسية على بلده، وذلك في عام 1883م[4]. وهكذا دخلت تونس تحت حكم الاحتلال الفرنسي.

[1]- محمود السيد، المرجع السّابق، ص 134.
[2]- مفيد الزيدي، موسوعة التاريخ العربي الحديث والمعاصر، دار أسامة، عمان، 2004، ص82.
[3]- إسماعيل أحمد ياغي، المرجع السابق، ص 140.
[4]- محمود السيد، المرجع السّابق، ص 134.

المحاضرة الثامنة: تطور نظام الحكم في طرابلس الغرب 1551-1911م

ألحق العثمانيون طرابلس بتاج الباب العالي سنة 1551م، وذلك بعد صراع طويل مع الإسبان وفرسان القديس يوحنا، فبعد أن احتل الإسبان طرابلس الغرب سنة 1510 ونكّلوا بأهلها وأخذ الكثير منهم أسرى إلى إسبانيا، أين بقي الإسبان فيها إلى غاية تسليمها لفرسان القديس يوحنا سنة 1530م، وذلك بعد طردهم من جزيرة رودس سنة 1523م.

ورغم المحاولات العديدة للعثمانيين من أجل استعادة المدينة إلاّ أنّهم لم يتمكنوا من ذلك إلاّ في سنة 1551م، بواسطة جيش ضخم كان يقوده بيالي باشا والريس درغوث.

وما إن انتصب الحكم العثماني في البلد حتى بدأ عصر جديد من الحكم هو نظام البايلرباي.

1- عهد البكلربكي 1551-1587م:

كان أول الولاة على طرابلس الغرب بعد فتحها من قبل العثمانيين وهو مراد آغا 1551-1555م، وكان مراد آغا قد كلّف سابقا بمهمة طرد فرسان القديس يوحنا من تاجوراء أين اتخذت مركزا لمهاجمة مدينة طرابلس، "وقد أولى مراد آغا أهمية بالغة لمدينة طرابلس أين جعل منها عاصمة للإيالة، وذلك بنقل مركزه من تاجوراء إليها، وجعل كنيسة المدينة مسجدا كما حصنها وأنشأ القلاع ورمم الموجودة سابقا"[1].

قام فرسان القديس يوحنا بحملة لإعادة احتلال المدينة سنة 1552م، لكنها باءت بالفشل الذريع بعد حصار دام ثلاثة أشهر كاملة[2]. وشهد عهد مراد آغا سطوة رجال البحرية؛ خاصة مع رياس بحر متميزين أمثال درغوث باشا فخلال الفترة الممتدة بين سنتي 1556-1565 أثار البحارة الطرابلسيون الرعب في البحر الأبيض المتوسط، ما ألزم الدول الأوروبية على دفع ضرائب لإرساء معالم السلم مع السلطة الطرابلسية، وفي

[1]- محمود علي عامر ومحمد خير فارس، تاريخ المغرب العربي الحديث -المغرب الأقصى-، المرجع السابق، ص169.

[2]- أحمد بك، المرجع السابق، ص 42.

المقابل تمكن حكام طرابلس الغرب من إقامات علاقات تجارية مع الدويلات الإيذالية ككورسيكا وجنوة والبندقية ومالطا[1].

2- حكم الأسرة القرمنلية 1711-1835م:

ترجع أصول الأسرة القرمنلية إلى منطقة قرمان بالأناضول، وقد أسس الحكم القرامنلي في طرابلس الغرب أحمد القرامنلي الذي قاد ثورة ضد نظام حكم الدايات سنة 1711م.

فبعد أن شاع الفساد في البلاد، وآيست الساكنة المحلية من حكم الدايات خاصة في أواخر عهدهم الذي شهد انحلالا وصراعا على السلطة، "ففي ستة أشهر من سنة 1710م تعاقب على حكم البلاد أربعة دايات هم: إسماعيل داي ورجب داي ومحمد داي ومحمود داي"[2]، وهكذا ظهر أحمد القرامنلي الذي كان أحد قادة الإنكشارية، فقاد انقلابا على آخر الدايات المدعو محمود داي وذلك بدعم من الجيش، و"اعترفت الإنكشارية به دايا عليهم، وراسل أحمد القرامنلي الداي محمود قائلا: "إنني على وشك أن أنزل بك ما أنزلته بي"، وما إن وصلت الرسالة لمحمود حتى شنق نفسه خوفا من المصير الّذي ينتظره إذا سقط في يد أحمد"[3].

توفي مراد آغا سنة 1555م وخلفه على السلطة

أرسل الباب العالي خليل باشا لتقلد منصب الحاكم على طرابلس أين لم يعترف السلطان بوالية أحمد القرامنلي، وقد رافقه أسطول إلى طرابلس لإلزام الداي أحمد على التنازل، ويذكر القنصل الفرنسي لابولار أن "الأسطول رسى على سواحل طرابلس في 6 أوت سنة 1711م، غير أن القائد إبراهيم الملّا لم يستطع إقناع الديوان لتعيين خليل

[1]- رجاء محمد عوض وأمال أحمد الجبو القذافي، النشاط الاقتصادي للموانئ الليبية خلال العهد العثماني الثاني 1835-1911م، المجلة الجامعة، مج04، ع.22، ديسمبر 2020، ص456.

[2]- أبو عبد الله محمد بن خليل ابن غلبون الطرابلسي، تحميل كتاب التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار، تح. الطاهر أحمد الزاوي، دار المدار الإسلامي، بنغازي، 2002، ص245.

[3]- شارل فيرو، الحوليات الليبية منذ الفتح العربي حتى الغزو الإيطالي، تر. محمد عبد الكريم الوافي، منشورات جامعة بن غازي، ليبيا، 1994، ص265.

باشا، وطرد الجميع من المدينة، ويبدو أن الأموال التي دفعها الطرابلسيون رشوة للقائد ومرافقيه قد أتت أكلها حيث عبر أن عزل الداي أحمد القرامنلي هي من سلطة الصدر الأعظم لا السلطان[1].

وكان لهذا الانتصار المعنوي دافعا ليتخذ القرمنلي أحد أجرأ القرارات في تاريخ طرابلس الغرب، أين "أقام حفلة باذخة جمع فيها جمع فيها جميع العساكر، وذلك في قصره الواقع قرب المدينة فخنق ثلاثمائة منهم، في حين فرّ الباقون إلى الأستانة وأعلموا السلطان بالحادثة، ولإسكات الباب العالي رد أحمد باشا بإرسال هدايا نفيسة إلى سلطات الولاية"[2].

وهكذا انفرد أحمد القرمانلي بالحكم حيث استقل عن الدولة العثمانية سنة 1720م وجعل لنفسه حكومة من أهل البلد[3]، فعمل على تحصين ميناء طرابلس أين جعله في منأى عن أي هجوم أوربي على طرابلس الغرب، كما قام بإعادة إصلاح القلاع المهترئة وبناء حصون جديدة مثل حصن أبو ليلة، وحصن الراب، وحصن المندريك[4].

كما نمت في عهده التجارة، وانتعش الاقتصاد الطرابلسي، فيذكر ابن غلبون: "أن تجار البلد قد أخبروه أنهم عندما دخلوا مدينة بلنسية، سألهم أهلها من أي بلد من المغرب العربي أنتم، فردوا: نحن من طرابلس الغرب، فسألوهم: أيبنون منازل بالذهب والفضّة؟"[5]. وتطورت في عهده أيضا البحرية الطرابلسية حيث جعلت عائدات الغنائم السوق الطرابلسية تنتعش انتعاشا كبيرا، فسعت الدول إما لكسب طرفه أو معاداته، ورغم بعض الحملات الأوروبية على المدينة إلّا أنّ الفشل كان مآل الكلّ، ونتيجة لهاته المتاعب

[1]- شارل فيرو، المرجع السابق، ص ص 266-277.
[2]- المرجع نفسه، ص 272.
[3]- حسين مسعود أبو مدينة، ميناء طرابلس ليبيا، دراسة جغرافية النقل، أطروحة دكتوراه، قسم البحوث والدراسات الجغرافية، جامعة الدول العربية، 2005، ص97.
[4]- المرجع نفسه، ص 98.
[5]- ابن غليون، المصدر السابق، ص 248.

قامت جنوة بعقد الصلح مع أحمد القرامنلي شرط ان تدفع له أربعة آلاف زكيني كل سنة وسلّمت له سفينة بها ستة وخمسون مدفعا فضلا عن كميات من البارود"[1].

لكن رغم الاستقرار الذي شهدته طرابلس الغرب؛ إلّا أن الثورات لم تهدأ، فثار حسين الكولوغلي سنة 1713م، ثم قام علي الصنهاجي سنة 1715م، وأعلن الخروج عن حكم أحمد القرمنلي، وما كاد الأخير يقضي على هاته الثورة حتى قاد حملة جديدة ضد فزان سنة 1718م[2].

انتحر أحمد القرامنلي بتاريخ الـ 03 نوفمبر سنة 1745م، وذلك بالنظر إلى كبر سنة وفقدان بصره، وقد خلفه على الحكم محمد باشا القرامنلي وهو ابن أحمد باشا من أمٍّ عربية، "وفي عهده نشبت القلاقل والثورات، فثار ضده أهل درنة سنة 1753م، وثارت قبائل غريان سنة 1754م، ولم تتوقف مشاكل محمد باشا عند هذا الحد فقد أرسل الفرنسيون حملة ضد طرابلس سنة 1748م، تلتها حملة إنجليزية سنة 1751م، وألزمه بتوقيع السلم واحترام السفن الإنجليزية المبحرة في المتوسط"[3].

توفي محمد باشا سنة 1754م وخلفه على الحكم علي القرامنلي حيث "شهد عهد سطوة الإنكشارية وعودتها إلى الحكم، فأصبحوا يحكمون البلد باسمه، وأصيبت البلد بقحط كبير أدت إلى هجرة الكثير من الناس إلى تونس ومصر، فاستنجد السكان بالأستانة لإنقاذهم من حكم علي فأرسلت علي برغل على رأس أسطول في 29 جويلية 1793م، حيث استولى على المدينة ونصّب نفسه واليا عليها[4].

[1]- رود لفوميكاكي، طرابلس الغرب، تحت حكم أسرة القرمنلي، تر. فوزي طه، دار الفرجاني، ليبيا، ص ص 16-17.

[2]- إيتوري روسي، ليبيا منذ الفتح العربي حتى نهاية سنة 1911م، الدار العربية للكتاب، 1991، ص ص 330-332.

[3]- رود لوفوميكاكي، المرجع السابق، ص ص 87-88.

[4]- الطاهر أحمد الزاوي، المرجع السابق، ص 226.

وقد أرهق علي هذا الناس بالضرائب، حتّى أنّه "بعد أن قام بتقتيل أبناء مشايخ الدواخل، راح يستولي على أثاث القلعة حتى لم يترك فيها مسمارا واحدا"[1]، وإنّ حكما كهذا كان لا بد أن يؤول إلى الزوال، "فقد قاد يوسف القرمنلي الذي كان مستقرا في تونس حملة بمساعدة التونسيين على طرابلس، أين تمكن من هزيمة علي برغل الذي فر في 28 فيفري سنة 1795م"[2].

تمكن يوسف باشا القرامنلي من إزاحة شقيقه عن الحكم في جويلية سنة 1795م، وتحصل أيضا على فرمان من السلطان يفيد بتوليته على طرابلس الغرب، وكان حكم يوسف باشا أحد أطول العهود خلال العهد العثماني، إذ شهد حكمه استقرارا سياسيا بسبب دهائه وحكمته، فتذكر كاتبة انجليزيّة في يومياتها: "إنّ مسلكه في مواجهة الأتراك الغاضبين قد أرغم الجميع على الاعتراف له بالبروز والتفوق على كافة أفراد الأسرة والإقرار له بالحكمة والدهاء رغم ما تميّز به قلبه من قسوة"[3].

وفي الحقيقة فإن شخصية يوسف باشا وطول فترة حكمه قد ساعدت كثيرا في استقرار الأوضاع، فازدهرت الصناعة من خلال صناعة الصابون والخمور، وراجت التجارة أين برز التجار الطرابلسيون في إفريقيا وحتى أوربا، وأعاد يوسف باشا تنظيم البحرية وولى قيادتها إنجليزيا اسمه بيتر ليل كان قد اعتنق الإسلام واتخذ لنفسه اسم مراد رئيس، وبهذا اصبحت طرابلس الغرب مركزا للغنائم والسلع[4].

لكن أواخر عهد يوسف باشا شهد انحدارا نحو الجبروت والتكبر على الساكنة المحلية، خاصّة وأنّ يوسف باشا كان قد بلغ من العمر عتيا، ولم يعد في استطاعته الحكم، "فتخلى عنه الكثير من أنصاره، فتخلى عن الحكم بتاريخ الـ12من أوت سنة 1832م، أين خلفه على الحكم ابنه علي"[5].

[1]- شارل فيرو، المرجع السابق، ص 363.
[2]- إيتوري روسي، المرجع السابق، ص ص 369-370.
[3]- المرجع نفسه، ص 373.
[4]- رود لوفوميكاكي، المرجع السابق، ص ص 135-139.
[5]- الطاهر أحمد الزاوي، المرجع السابق، ص 232.

كان علي باشا آخر حكام العهد القرامنلي، حيث أنه تولى الحكم "والثورات قائمة في البلد، وقد أصر الثوار على عدم الاعتراف بسلطته رغم التعيين التي أتاه من السلطان سنة 1833م، وفي سنة 1835م رسى أسطول عثماني على سواحل طرابلس مكون من 22 سفينة، وأعلن تولية نجيب باشا واليا على طرابلس الغرب"[1].

انتهى حكم الأسرة القرمانلية بعد الضعف الذي أصابها في أواخر عهدها، ليتم الانتقال إلى نظام حكم جديد هو ما يسميه المؤرخون "العهد العثماني الثاني" بداية من سنة 1835م.

3- العهد العثماني الثاني 1835-1911م:

في 14 ماي من سنة 1835م وصل أسطول عثماني سواحل طرابلس، ونصّب نجيب باشا واليا على طرابلس خلفا لعلي باشا، الذي أعلم أعيان البلد بأنه إنما جاء لطرابلس كي يهيئ الاحوال لاستقبال محمد رئيف الذي عينة السلطان حاكما على طرابلس[2].

لقد شهد العهد العثماني الثاني حالة من اللااستقرار في الحكم؛ علما أن عدد الولاة الذين تداولوا السلطة في طرابلس الغرب خلال هذا العهد بلغ عددهم ثلاثون واليا، أين أثر كثرة العزل لعدم استقرار الوضع العام، حيث قضى معظمهم الوقت في إخماد الثورة.

تمكن نجيب باشا فعلا من وضع حد للفوضى التي كانت منتشرة في المدينة، غير أن ولاء الساكنة الطرابلسية وقادة القبائل لم يكونوا قد استقروا على الخضوع بشكل تام لنفوذ العثمانيين، حيث استمر عبد الجليل سيف النصر مستقلا عن الحكم مدة أربعة سنوات، في حين أن آغا مسراتة ورغم توجيهه رسالة احترام لنجيب باشا إلّا أنه استمر مستقلا بمنطقته[3].

---

[1]- الطاهر أحمد الزاوي، المرجع السابق، ص ص 234-235.

[2]- أنتوني جوزيف كا كيا، ليبيا في العهد العثماني الثاني 1835-1911م، دار إحياء الكتب العربية، 1946م، ص38.

[3]- شارل فيرو، المرجع السابق، ص 451.

استمر نجيب باشا في سك العملة المحلية باسم السلطان وضرب النقود المحلية النحاسية سنة 1835م، "ولم يدم حكمه طويلا حيث عزل في سبتمبر من نفس السنة وخلفه الوالي محمد رئيف"[1].

كان أول ما قام به الباشا رئيف هو "ترحيل أفراد الأسرة القرامنلية إلى إسطمبول ومن هناك إلى بلاد الأناظول"، ثم تفرغ لأهل تاجوراء الثائرين فأرسل إليهم محمد باشا قائد الإنكشارية سنة 1836م، والذي تمكن من وضع حد لهذا التمرد"[2].

واستقرت الأوضاع نوعا ما في عهد الطاهر باشا الذي انتهت عهدته سنة 1838م، لكن قصر فترة توليه السلطة لم تساعده في تعزيز ركائز حكمه، وبمجرد انتهاء حكمه حتى ثارت القبائل على خلفه حسن باشا الجشمة لي، الذي أقبل على الملذات ونسي الحكم"[3].

وقد استمرت تجارة الرقيق قائمة في طرابلس الغرب، وذلك إلى غاية سنة 1855م، أين احتج البريطانيون عن الوضع، الأمر الذي حدا بالحكام إلى تخفيفها ولو رسميا، فأدى ذلك إلى تأثر وانهيار الاقتصاد الليبي القائم على ريع هاته العائدات[4].

ورغم أن الإيالة شهدت استقرارا في عهد علي باشا عشقر الذي تولي الحكم في أوت سنة 1838م، أين تمكن من إخماد الثورات والقيام بالتجارة والصناعة؛ إلّا أن هذا التغيير دائما ما كان يخضع للولاة أنفسهم وليس للمنظومة، فطرابلس الغرب تكون قوية إذا حكمها والٍ قويّ وهشّة حين يتولاها والٍ ضعيف، ما يؤكد أن هؤلاء الولاة لم يكونوا في الغالب يخضعون لرقيب أو قانون تنفيذي يلزمهم حدودهم، وحتى الإنكشارية طالما استأنست بولي ضعيف لا يطلق سلطته عليهم.

[1]- إيتوري روسي، المرجع السابق، ص ص 444-445.
[2]- أحمد بك، المرجع السابق، ص ص 341-343.
[3]- المرجع نفسه، ص 344.
[4]- إيتوري روسي، المرجع السابق، ص 452.

وهذا ما يمكن أن نلاحظه حين تولى خلفه راغب باشا سنة 1847م، حيث ثارت ضده القبائل، حتى أن أهل غريان قتلوا أحمد أفندي متصرف لواء الجبل، ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد ففي عهد راسم باشا شهدت البلاد "حاول سراج الدين رفقة مجموعة من شباب طرابلس أمثال أحمد النائي وشيخ البلاد... الخ فتصدّى لهم وقام بنفيهم"[1] وهذا منعا لأي تغيير خارج السلطة، خاصة مع الانحدار الذي مس جميع العالم العربي في أواخر العهد العثماني، الذي بدأت تظهر نتائجه بسقوط الجزائر في يد الفرنسيين سنة 1830م.

وهكذا فإن سلطة الوالي العثماني اقتصرت على الساحل في حين أن المدن الداخلية اتخذت لنفسها حكاما مختلفين، فانقسمت البلاد إلى قبائل وأعراش مستقلة لكل منها قائده ونظامه الخاص، ولعلّ مردّ هذا الاستقلال هو التمييز الذي كان يتبعه الولاة في تسيير البلد أين جعلوا الإدارة مركزية.

وأمام ضعف الولاة "تمكن القناصل من لعب دور بارز في إدارة الحكم مستغلين امتيازاتهم، كما أنّ اهتمام الحكام في أواخر العهد العثماني الثاني منع التحرشات الأوروبية؛ وبخاصة التغلغل الأنجلومصري شرقا والفرنسي غربا[2].

قامت جمعية اتحاد الترقي بخلع السلطان عبد الحميد الثاني سنة 1908م، فخضعت البلاد لحكم الاتحاديين، ورغم عملية الإصلاح التي سعى نحوها العثمانيون؛ خاصة بعد سقوط تونس سنة 1882م، إلّا أن الوضع العام والحصار الذي فرضه سقوط دولتي الجزائر وتونس، "بالإضافة إلى سحب جزء كبير من الجيش إلى اليمن لإخماد الثورة سنة 1911م"[3] قد نسف جميع محاولات الإصلاح.

[1]- أحمد صدقي الدجاني، ليبيا قبيل الاحتلال الإيطالي، المطبعة الفنية الحديثة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1971، ص.

[2]- نبيل لزعر، أوضاع ليبيا قبل الاحتلال الإيطالي، المجلة الجزائرية للدراسات التاريخية والقانونية، ع06، ديسمبر 2018م، ص23.

[3]- نبيل لزعر، أساليب إيطاليا الممهدة لاحتلال ليبيا، مجلة الحكمة للدراسات التاريخية، مج5، ع.12، ديسمبر 2017، ص ص 59-60.

لقد كان الإيطاليون قد درسوا طرابلس جيّدا وذلك من خلال البعثات العلمية السرية، كما أنّ "الصهاينة قد فكّروا في تأسيس وطن قومي في ليبيا، فأسلوا إلى بعثات منها بعثة ناجوم سلوش وبعثة جريجوري، وأراد الفرنسيون والإنجليز أخذ نصيبهم بليبيا، حيث وقّع الفرنسيون مع إنجلترا معاهدة أصبحت بموجبها المناطق الممتدة حتى جبال تيبيستي خاضعة للنفوذ الفرنسي سنة 1899م[1].

أعلن الإيطاليون الحرب على الدولة العثمانية بتاريخ الـ29 سبتمبر سنة 1911م، مستغلين الوضع في ليبيا خاصة مع وجود "جالية أوربية قوامها ألفي أوربي أغلبهم إيطاليون"[2]، وفي شهر أكتوبر من نفس السنة احتل الإيطاليون طرابلس الغرب، "فانسحبت الحامية التركية إلى الصحراء والتف حولهم العرب، وما هي إلّا أسابيع حتى حاولوا استعادة المدينة لكن دون جدوى[3].

[1]- إيتوري روسي، المرجع السابق، ص529.

[2] -Bandini, Franco, Gli italiani in Africa. Storia delle guerre coloniali 1882-1943 [The Italians in Africa. History of the Colonial Wars 1882-1943] (in Italian), Milan: Longanesi & C, 1971, p267.

[3]- ينظر:

Vandervort, Bruce, Verso la quarta sponda la guerra italiana per la Libia (1911-1912) [Towards the Fourth Shore: the Italian War for Libya (1911-1912)] (in Italian). Rome: Italian Army General Staff, 2012.

المحاضرة التاسعة: علاقات الأقطار المغاربية الخارجية في المشرق العربي

إن موقع المغرب العربي ذو الانتماء المشرقي والإفريقي والقريب من أوربا، جعله ذا ميزات عديدة، ومنحه علاقات خارجية متميزة، ولهذا فقد سارعت العديد من الدول إلى تعزيز تعاونها مع المنطقة.

وقد اختلفت هاته العلاقات باختلاف الدولة، ففي الوقت الذي كانت العلاقات المشرقية في أغلبها مدفوعة بطابع ديني، فإن العلاقات مع إفريقيا سادها الطابع التجاري وفي بعض الأحيان الاستعماري، وأما مع أوربا فإن هاته العلاقات طالما ارتبطت بالدافع الإيديولوجي والتجاري.

لعل أولى هاته العلاقات هي تلك الرحلات الدينية حيث أن أغلب العلماء المغاربة كانوا يصلون إلى مرحلة يصبحون فيها ملزمين بإجراء رحلات إلى المشرق استزادة وطلباً لعلم ولقاء العلماء، ويؤكد الذهبي "أنّ أعظم ما يهتم به العالم إذا حجّ هو الاجتماع بالعلماء والاستفادة منهم"[1]. وصاحب هاته الرحلات حتى النساء، فيذكر أبو عبد الله محمد بن أحمد الحضيكي أن الحجيج كانوا يخالطون النساء ويلهون معهن ويختلطون بهنّ وهذا مخالف للشرع[2].

وكانت القوافل المغاربية تلتقي كثيرا في الحجاز، مثلما ذكره الكثير من الكتاب، فيقول الرحالة المغربي العياشي عن ركب الحج المغربي الذي كان فيه بمكة سنة 1661م: "وبعد أن خرجنا منها لقينا ركب الجزائر القافلين من الحجاز"[3]. .وقد ألّف الكثير من العلماء أعمالهم في المدينة ولعلّ أبرزهم "الزاواي الجزائري 1543م، وأحمد

[1]- صادوق الحاح، أثر الرحلات المغاربية على البيئة الجزائرية، مجلة تاريخ المغرب العربي، المجلد 4، العدد 2، 2018، ص150.

[2]- جلول بن قومار وجمال سهيل، مشاهدات الرحالة المغاربة في المسالك والطرق من خلال الرحلات الحجازية، مجلة دراسات تاريخية، مج. 10، ع.01، 2022م، ص186.

[3]- صادق الحاج، دور ركب الحج الجزائري في التواصل الثقافي بين الجزائر والمشرق العربي خلال العهد العثماني، مجلة المفكر، م.5، ع.1، جوان 2012م، ص 72.

المقري التلمساني الذي ألّف كتبه في السيرة وهو في الحرمين الشريفين، ومهدي عيسى الجعفري الثعالبي الجزائري خلال القرن السابع عشر... وغيرهم"[1].

وإضافة إلى العلاقات الثقافية فإنّ هناك علاقات تخص النسب والانتماء، فالكثير من العائلات الجزائرية نسبت نفسها إلى النسب الشريف، أملا في الحصول على امتيازات نفسية وأخرى تتعلق بالمكانة وحتى الدخل المادي، في حين أنّ عائلات أخرى انتسبت إلى العائلات الشريفة من أجل الحصول على شرعية الحكم، مثلما وقع مع السعديين والعلويين في المغرب الأقصى، وحتى في الجزائر فإنّ الكثير من الحكام زاروا مكة والمدينة في رحلات حج لإظهار تدينهم، "فعائلة أحمد باي الذي كان طائشا في صغره خاضعا للملذات؛ أرسلته للحج أملا في أن يستقيم ويولى على قسنطينة بايا"[2]. ونفس الأمر فعله ابن القاضي مع مملكته إمارة كوكو أين أكد فيرو أن أصول ابن القاضي ترجع إلى الأدارسة وأما نيل روبان فيرى أن أصوله تعود إلى إسماعيل الأغواطي العربي، ويبدو أن ابن القاضي رأى في ادّعاء النسب الشريف ركيزة لحكمه"[3].

ورغم قلة المعلومات حول التبادل التجاري بين الأقطار المغاربية والمشرقية؛ إلّا أن المؤرخين يشيرون إلى وجود طرق برية في المغرب العربي خلال العهد العثماني تنقسم إلى قسمين سلطانية وجهوية، فالسلطانية وهي الطرق الكبرى التجارية، وتربط أقطار المنطقة فيما بينها ومع المشرق العربي، ودواخل إفريقيا المعروفة باسم السودان"[4]. .ويذكر هايدو وكتاب آخرون أن الكثير من السلع التي تباع في الأسواق الجزائرية كانت تأتي من الإسكندرية وبعض بلدان المشرق..."[5].

---

[1]- صادق الحاج، دور ركب الحج الجزائري في التواصل الثقافي...، المرجع السابق، ص 80.

[2]- ينظر: مذكرات الباي أحمد، المصدر السابق.

[3]- علي بن الشيخ، مملكة كوكو ونظامها السياسي والعسكري، أطروحة الدكتوراه، جامعة مولود معمري تيزي وزو، 2018م، ص 43. نقلاً عن: (H) Genevois, Légende des rois de Koukou, n121, 1974, p 3

[4]- محفوظ سعيداني، التجارة بأقطار المغرب العربي في العهد العثماني ما بين القرنين (18-19م)، المجلة التاريخية الجزائرية، مج.02، ع.02، 2021.

[5]- ينظر: هايدو، المصدر السابق.

المحاضرة العاشرة : علاقات الأقطار المغاربية الخارجية مع إفريقيا .

1- علاقات دول المغرب العربي مع إفريقيا:

لقد شهدت العلاقات بين دول المغرب العربي وإفريقيا نشاطا واسعا خلال العهد العثماني؛ خاصة فيما تعلّق بالجانب التجاري، فظهرت تجارة القوافل بين ساكنة جنوب المغرب العربي وإفريقيا، "فيذكر رينيه كييه في كتابه "سفر إلى تمبكتو" أن حمولة جمل واحد تساوي خمسة مائة رطل وأما عن سعرها فيذكر حوتيه أن ثمن نقل حمولة من تمبكتو إلى تافيلات يتراوح بين عشرة واثنا عشر مثقالا من الذهب حيث تدفع مسبقاً"[1].

وقد كانت هناك العديد من الطرق التجارية الرابطة بين الجزائر وإفريقيا مثل طريق وهران - أرزيو- تمبكتو، وطريق الجزائر العاصمة- تمبكتو، وأيضا طريق سكيكدة وقسنطينة- أمقيد والقار- تمبكتو، وكذا طريق بسكرة- جني بمالي، ومسالك ورقلة- تمبكتو، ومسلك ورقلة- تادمكة- غاو شرق مالي، ومسلك وارجلان- تمبكتو- كانو شمال نيجيريا[2]، كما برزت العديد من الحواضر الجزائر كمركز للسلع مثل "قسنطينة والجزائر ومعسكر وتلمسان، في حين كانت مدن الصحراء مراكز لمقايضة هاته السلع مثل متليلي وميزاب وورقلة وعين صالح وتوات وغات التي كانت القوافل العابرة للصحراء المتنقلة بين إقليم تافيلالت بالمغرب وواحة غدامس بليبيا وحوض النيجر بالسودان"[3].

وكانت أغلب الدول المغاربية قد بنت علاقات تجارية قوية مع الدول الإفريقية، حيث لعبت الدولة السعدية في المغرب دورا كبيرا في الارتقاء بالتجارة مع الغرب الإفريقي، أين بلغت هاته العلاقات أوجها بين سنتي 1510-1631م، وبخاصة بعد

---

[1]- أوزايد بالحاج، تجارة القوافل بين الجزائر وإفريقيا جنوب الصحراء في العهد العثماني ودورها الحضاري، مجلة روافد للبحوث والدراسات، ع.02، جامعة غرداية، 2017م، ص ص 103-104.

[2]- شريف أسماء، شعباني نور الدين، العلاقات التجارية بين الجزائر وغرب إفريقيا خلال العصر الحديث، م.25، ع.58، مجلة المعيار، جامعة قسنطينة، 2021، ص ص 687-688.

[3]- المرجع نفسه، ص 690.

الاحتلال المغربي لهاته المناطق في عهد المنصور بداية منذ سنة 1585م[1]، ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد فقد ارح الملوك المغاربة يتخذون من العبيد الأفارقة الذين جلبوا إلى مراكش جيشا سمي "بجيش العبيد"، حتى أن هذا الجيش نمى بشكل مؤثر في عهد الملك المغربي عبد الله الغالب بين سنتي 1517-1574م، وأشار السفير الإسباني إلى أن حرس قصر السلطان المنصور كانوا من العبيد السّود[2]، وأما السلطان إسماعيل العلوي 1672-1727م فكوّن هو الآخر جيشا عرف باسم البخاري من العبيد السود الذين كانوا في خدمة أحمد المنصور، كما اشترى البعض الآخر من إفريقيا[3].

وأما في تونس فقد برزت تجارة العبور أين كانت قوافل غدامس وفزان تأتي بالعاج والتبر وريش النعام، وتعود محمّلة بالملح والمنسوجات الأوروبية والمرجان والمعادن، ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد فتونس كانت تقوم باستيراد الكثير من المنتوجات الإفريقية وتعيد تصديرها إلى دول المغرب العربي، ففي "عهد الباي حمودة باشا كن التونسيون يحصلون على الذهب وريش النعام والعاج من إفريقية ليعيدوا تصديرها نحو المشرق العربي وليفورنة"[4].

لكن سرعان ما سيطر الأوروبيون على التجارة الخارجية خاصة مع توفر الأموال أين استغلت مناطق معيّنة في تونس لصالحها الخاص، فمثلا: استغل الفرنسيون مقاطعة النيقرو أو ثامكارت التي تقع شرق طبرقة أواخر القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر، والذي جعلت منه مركزا تجاريا لتسويق الحبوب الإفريقية[5].

---

[1]- مجيد كامل حمزة، مرتكزات السياسة الخارجية المغربية في افريقيا جنوب الصحراء، المجلة السياسية والدولية، د.ت، ص ص 146-147.

[2]- محمد نبيل ملين، السلطان الشريف، الجذور الدينية والسياسية للدولة المخزنية في المغرب، منشورات المعهد الجامعي- جامعة محمد الخامس، 2013، ص301.

[3]- المرجع نفسه، ص 301.

[4]- بوتوقاماس حفيظة، النشاط التجاري للمجتمع التونسي خلال العهد الحسيني 1705-1830م، مجلة معارف، جامعة البويرة، م.10، ع.18، 2015، ص302.

[5]- بوتوقاماس حفيظة، المرجع السابق، ص297.

المحاضرة الحادية عشرة: علاقات الأقطار المغاربية الخارجية مع أوروبا

كان للاحتلال الإسباني لغرناطة سنة 1492م أثر في انقلاب موازين القوى بين أوربا والعالم المغاربي، حيث انطلقوا في احتلال سواحل المغرب العربي فاستولوا على أجزاء من المغرب الأقصى وسقط المرسى الكبير سنة 1505م ووهران سنة 1509م وبجاية سنة 1510م وأذعنت الكثير من المناطق الجزائرية لدفع الضريبة، وأما تونس فقد سقطت في يد الإسبان سنة 1510م وسقطت في نفس السنة طرابلس الغرب.

لكن مع ظهور العثمانيين في المغرب العربي بدأت موازين القوى تميل لأهل المنطقة، حيث حررت أغلب المناطق المغاربية من هذا الاحتلال، وقامت على أنقاضه دول لها علاقاتها الخارجية الخاصة مع أوربا، ونفس الأمر حدث مع المغرب فبانتصار المغاربة في معركة "واد المخازن على الحلف البرتغالي الإسباني سنة 1578م دخلت مرحلة جديدة من القوة النسبية وأسست لعلاقاتها الخارجية سواء مع أوربا أو حتى الدولة العثمانية".

بنيت العلاقات المغاربية مع أوربا في القرن السادس عشر على فكر إيديولوجي، حيث نظر العثمانيون إلى أنفسهم كقادة للعالم العربي، في حين أرى الإسبان أنفسهم قادة العالم المسيحي، حتى أن الملك الإسباني قد أعلنها صراحة حينما قال: "ربّ واحد، عالم واحد، وراع واحد"[1].

ولهذا فإن عالم القرن السادس عشر هو عالم من الحروب البحرية الكبرى بين الإمبراطورية العثمانية والإسبانية، بني في أساسه على صراع أيديولوجي، ولعل أهم المعارك الكبرى التي وقعت بين الطرفين هي معركتي بروزة سنة 1538م ومعركة ليبانتو سنة 1571م.

[1] -Norman Housley, Religious warfare in Europe, 1400-1536, Oxford University Press, New York, 2002, p.78.

لقد سعى الإسبان دوما إلى إعادة احتلال المناطق التي فتحها العثمانيون خاصة بعد سقوط طرابلس الغرب في يد العثمانيين سنة 1551م وتونس سنة 1574م، ولعل أبرز الحملات التي شملت المدن المغاربية هي الحملة الفاشلة التي قادها "شارلكان على الجزائر سنة 1541م، والتي انتهت بغرق أغلب سفن الجيش الإسباني واستقالة شارلكان عن الحكم وانعزاله في أحد الأديرة للتعبّد"[1].

وعلى عكس العلاقات المغاربية الإسبانية خلال القرن السادس عشر، فإن العلاقات المغاربية الفرنسية قد شهدت انتعاشا كبيرا حيث تمكن الفرنسيون من الحصول على امتيازات في البلدان المغاربية التابعة للعثمانيين، بموجب معاهدة الامتيازات التي وقعها العثمانيون مع الفرنسيين سنة 1535م، "وكان لهذا الاتفاق أثره المباشر على الإسبان حيث أعطى السلطان أوامره لخير الدين بربروسة بمهاجمة مدينة نيس واستعادتها من يد الإسبان سنة 1543م، ويذكر ماتاي عن هاته الحملة الجزائرية قائلاً: " لقد توحد المسلمون والمسيحيون ضدّ المسيحيين، هي تلكم نقطة خارج هامش القرن السادس عشر..."، وأما ستانلي لان بول فيذكر: "لقد انخفضت رايتنا لتعوّض بالراية المسيحية"[2].

وامتدت هاته العلاقات لتشمل الجانب الاقتصادي، حيث سيطر التجار الفرنسيون على التجارة الجزائرية والتونسية، خاصة بعد الأوامر التي أعطاها السلطان العثماني لقادة البلدين بتسهيل مهمة الفرنسيين لصيد المرجان في المنطقة، "لكن لم تبدأ عملية الصيد إلّا سنة 1578م، ولم يختلف النشاط التجاري الفرنسي في تونس عن نظيره الجزائري حيث حصل الفرنسيون أيضا على حق صيد المرجان في تونس، ولو أنهم واجهوا منافسة شرسة مع الجنويين"[3].

---

[1] -De Grammont. H. D, op.cit., p.68.

[2] -Stanley Lane-Poole, op.cit, p.95.

[3]- قدور عبد المجيد، النشاط الاقتصادي الفرنسي في الجزائر وتونس خلال العهد العثماني، مجلة العلوم الإنسانية، ع.28، ديسمبر 2007، ص ص271-274.

وفي الجانب المقابل دخل الإنجليز البحر المتوسط بعد الاتفاق الذي وقعته الملكة إليزابيث مع السلطان العثماني مراد الثالث سنة 1579م، والذي منح بموجبه امتيازات للانجليز، وعيّن "جون تيبتون كأول قنصل بريطاني في منطقة المغرب العربي سنة 1580م"[1]، كما أدى هذا الاتفاق إلى تأسيس شركة المشرق سنة 1581م[2] بتفويض من الملكة إليزابيث الأولى، تلاه تأسيس شركة تدعى الشركة البربرية سنة 1585م تتكفل بالتجارة مع مناطق المغرب العربي [الجزائر والمغرب وتونس وطرابلس الغرب]، إلاّ أنّ هاته الشركة دمجت مع شركة البندقية التي تأسست سنة 1592م[3].

ومع أواخر القرن السادس عشر برزت قوى جديدة في الصّراع الدولي تمثلت في كل من إنجلترا وفرنسا وهولندا، حيث سيطرت هاته الدول على البحر الأبيض المتوسط والعالم، ولم تبني علاقاتها كليّا على الفكر الإليديولوجي، بقدر ما أقامته على مصلحة الدولة الميكيافيلية، وهكذا انتهى زمن الحروب الكبرى بين الإمبراطوريتين الإسبانية والعثمانية وهكذا برزت دول المغرب العربي في البحر المتوسط، أين أقامت علاقاتها الخاصة مع الدول الأوروبية.

أطلق المؤرخون الأوروبيين على الفترة الممتدة بين سنتي 1580-1680م القرن الذهبي للقرصنة، أين برزت فيه الدول المغاربية في البحر المتوسط وحتى المحيط الأطلسي، وقد كان التوافق بين البحريات العثمانية والمغرب الأقصى جليا، فقد " أقلعت السفن الجزائرية بالإضافة إلى قطع من الأسطول المغربي من مدينة سلا الساحلية خلال الحملة التي قادها مراد رايس على آيسلندا وبالتيمور بين سنتي 1627م و1631م"[4].

---

[1] -Playfair, E. L, The scourge of Christendom, Annales of British relations with Algiers prior to the French conquest, Smith, Elder, And Co, London, 1884, p88.

[2] -Gábor Ágoston, Bruce Masters, Encyclopedia of the Ottoman Empire, Facts On File Inc, New-York, 2009, p332.

[3] ينظر: -Richard Hakluyt, The principal navigations, voyages, traffiques, and discoveries of English Nation, made by sea or over-land, South and south-East parts of the World, at any time within the compasse of these 1600 years… exc. 2nd, George Bishop, Ralph Newbery, Robert Barker, London, 1599.

[4] -Alan G. Jamieson, Lords of Sea, a History of the Barbary Corsairs, Reaktion books ltd, London, 2012, p76.

ولم تشهد العلاقات الأوروبية المغاربية خلال هذا القرن استقرارا، أين شهدت حملات أوربية متكررة، رغم المعاهدات الكثيرة التي وقعها الأوروبيون مع سلطات المنطقة، وفي المقابل احتل الإسبان منطقة العرائش سنة 1609م ثم احتل الإنجليز طنجة سنة 1662م[1]، في حين رد الفرنسيون باحتلال جيجل سنة 1664م.

وقد استمرت البحريات المغاربية في نشاطها ضد الدول الأوروبية المحتلة، وبقي اقتصاد دول المغرب العربي قائما بنسبة معتبرة من عائداته على الغنائم وتجارة الأسرى التي لم يتم إلغاؤها أو تقليلها إلّا بمؤتمر إكس لاشابيل سنة 1818م، ورغم أن الأوروبيين اتخذوا حجة إنهاء العبودية للضغط على الدول المغاربية لوقف تجارة الأسرى الأوروبيين إلّا أن الواقع يثبت أن تجارة العبيد قد استمرّت حتى بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر سنة 1830م، ويعتقد "بنجامين براور أنه وخلال أواسط القرن 19م وجد ما لا يقل عن 10.000 عبد في الجزائر"[2].

وشهد أواسط القرن الثامن عشر تغييرا في موازين القوى في العلاقات بين أوربا ودول المغرب العربي، ففي الوقت الذي شهدت فيه أوربا تطورا جذريا في جميع المجالات خاصة مع الثورة الصناعية واختراع أسلحة جديدة مثل السفن العالية والمدافع القوية، كان العالم المغاربي يقبع في تخلف زادته الصراعات السياسية والقبلية تأزما، ويتضح هذا الأمر جليا "مع الحملة الأمريكية على الجزائر سنة 1815م والذي تلته حملة بريطانية سنة 1816م تحت قيادة اللورد إكسموث انتهت بتحطيم الجزائر بشكل شبه كلي، حتى أن الإنجليز تمكنوا من حصار الجزائر بسفينة عالية واحدة سنة 1824م"[3]. ونفس الأمر وقع مع طرابلس الغرب حيث أرهقتها الحرب الأمريكية، والتي انتهت

[1]- بووشن محسن، التنافس الإسباني -الإنجليزي حول الثغور المغربية خلال عهد أحمد المنصور السعدي: العرائش نموذجاً، مجلة المقدمة للدراسات الإنسانية والاجتماعية، مج.5، ع.02، 2020، ص101.

[2] -El Achi, Soha. Children and Slave Emancipation in French Algeria and Tunisia (1846-1892). PHD, Georgetown University, 2017, p06.

[3]- ينظر: قرباش بلقاسم، الأسرى الأوروبيون في الجزائر، المرجع السابق.

"باضطرار طرابلس الغرب المنهارة على توقيع السلم مع الأمريكيين في 10 جوان سنة 1805م، وتحرير جميع الأسرى الأمريكان المتواجدين في حوزة الطرابلسيين"[1].

أسس الأوروبيون البنوك التي سيطرت على تمويل التجارة الغربية في المناطق المغاربية، ولعلّ أحد أشهر هاته البنوك هو بنك دي روما الذي باشر أعماله في ولاية طرابلس الغرب "بداية من 15 أفريل سنة 1907م، تحت إدارة التاجر الكبير أنريكو بريشياني، حيث أصبح البنك الأداة الاقتصادية الإيطالية الضاغطة في طرابلس، وأنشأ له فروعا متعددة في كثير من المدن الطرابلسية، وهكذا جعل من إيطاليا الشريكة الأولى للدولة العثمانية في طرابلس الغرب"[2].

وتجاوزت سلطات البنك الإيطالي مجرد التسيير المصرفي إلى الأحقية في شراء الأراضي من المواطنين الليبيين، ورغم الرفض الذي أبداه الوالي جعفر باشا إلّا أنه عزل في النهاية بضغط من البنك مورس على السلطات في إسطمبول، كما استخدمته السلطات الإيطالية في إقناع الرأي العام باحتلال ليبيا، "أين ادعى البنك إفلاسه رغم بعده كل البعد عن الأمر"[3].

وانتهى الفكر التجاري الذي تبناه الأرستقراطيون إلى بروز الفكر الاستعماري الذي يهدف إلى تقاسم العالم القديم، فكانت الجزائر أول دولة مغاربية تسقط تحت نير الاحتلال الفرنسي سنة 1830م، تلاه الحماية الفرنسية على تونس سنة 1882م، ثم الاحتلال الإيطالي لليبيا سنة 1911م، لتسقط المغرب في يد الإسبان والفرنسيين سنة 1912.

---

[1]- ينظر:

Farber, Hannah, "Millions for Credit: Peace with Algiers and the Establishment of : America's Commercial Reputation Overseas, 1795–96.", Journal of the Early Republi, 2014

[2]- سالم فرج عبد القادر، دور بنك دي روما في التمهيد للغزو الإيطالي لليبيا (1907-1911م)، مجلة جامعة سبها، مجلد 7، ع.1، 2008، ص30.

[3]- المرجع نفسه، ص 39.

المحاضرة الثانية عشرة: الحياة الاجتماعية في بلدان المغرب العربي الحديث

1- في الجزائر:

تكوّن المجتمع الجزائري في عهد الدولة العثمانية من الأتراك والجزائريين والعنصر الكرغلي "من أب تركي وأم جزائرية"، أمّا عدد السكان فهناك اختلاف كبير بين المؤرخين لأنّ السلطات التركية لم تكن تهتم بعمليات الإحصاء، ولكن معظم المؤرخين يقدرون عددهم بـ 3 ملايين نسمة في الفترة الأخيرة للحكم العثماني، أي بعد ان تعرّضت البلاد لكثير من الأوبئة والكوارث الطبيعية مثل المجاعات والجراد[1].

وقد اتسمت الأوضاع الاجتماعية في أكثر الأحيان بالفوضى والاضطرابات وتوترات الإنكشارية، كما كانت تتأثر بالأوبئة والأمراض والكوارث. وكانت الحياة الريفية أشدّ قساوة، إذ كثيرا ما كانت تتعرض لغارات التركية بسبب رفضها الاستجابة للضرائب المفروضة عليها، وظلت القبائل الجزائرية خلال الحكم العثماني تعيش صراعات دموية نتيجة السياسة التركية التي كانت تستهدف الحيلولة دون وحدتها لأن ذلك كان يشكل في اعتقاد الحكام الأتراك خطراً على وجودهم الأمر الذي لم يعمّق انصهار المجتمع في بوتقة واحدة مع الأتراك، وظل هذا المجتمع يعيش فرقة موحشة وعداوات قاتلة[2].

2- في ليبيا:

عرفت ليبيا أوضاعا اجتماعية مزرية أدت على انتشار حالات الجوع والفقر سواء في المدن الداخلية وهذا خلال فترة حكم الأسرة القرمانلية إضافة إلى انتشار واندلاع العديد من التوترات والتمردات سواء في المدن الساحلية والداخلية التي عرفتها البلاد الليبية سواء في طرابلس، تاجوراء، الجبل الأخضر وكانت بين سنة 1793 و1798[3].

---

[1]- محمد العربي الزبيري: التجارة الخارجية للشرق الجزائري، الجزائر، 1972، ص 112.

[2]- المرجع نفسه، ص 112.

[3]- شارل فيرو: الحوليات الليبية من الفتح الغربي حتى الغزو الإيطالي، ترجمة وتحقيق: محمد عبد الكريم الوافي، ط3، منشورات جامعة قاريونس، 1994، ص ص 275-282.

في شهر جوان عام 1733م تفشى الطاعون في طرابلس وفتك بالناس سواء في المدينة أو في المناطق الداخلية وتضرر منه حتى القناصل الأوروبيون منهم الفرنسيون وقد هلك منهم 13 شخصا[1].

تميزت سنة 1745 بانقطاع الأمطار وتفشي حالة القحط في البلاد وأدت ندرة المياه في هلاك عدد كبير من الأهالي وذويهم ولقد تضرر إقليم بنغازي جرّاء هذه الكارثة أكثر من غيره من مناطق البلاد، وصار أهله يموتون من شدة الجوع والعطش، كما أدت أيضا إلى حدوث مجاعة رهيبة في طرابلس الغرب برمتها عام 1767م، فهاجر إلى مصر وتونس أكثر من 40 ألف[2].

كما تعرضت طرابلس إلى المجاعة والقحط مما تسبب في انتشار الطاعون سنة 1785م مما ترتب عنه هلاك عدد كبير من أهل طرابلس قدر العدد بـ 25 ألف[3].

3- المغرب الأقصى:

شهد المغرب بعد وفاة المنصور هجرات خاصة من الموريسكيين الذين حلوا بتطوان وسلا والرابط حيث زاولوا أعمال كثيرة خاصة الجهاد البحري باعتباره الأكثر أهمية، كما ساهموا في الإنعاش الاقتصادي لإفريقيا الشمالية.

أما في مراكش فقد حلت فئات من العلوج من مختلف الأجناس وهم نصارى يدخلون إلى الإسلام، وكما أعتبر الأسرى المسيحيون أيضا من العناصر التي تواجدت بالمغرب تحت مراقبة الدولة كما أن قسما كبيرا منهم يضطر إلى اعتناق الإسلام ليتخلص من الأسر، وقد بلغ عددهم أواسط القرن 16م حوالي 3 آلاف أسير[4].

وقد استقر بمدينة تارودانت عدد كبير من اليهود والذي قدر عددهم بحوالي ألف يهودي وفي تطوان استقر بها عائلات أندلسية كثيرة كان الكثير منهم يحمل أسماء

[1]- شارل فيرو: المصدر السابق، ص 298.
[2]- المصر نفسه، ص 324.
[3]- نفسه، ص ص 336-338.
[4]- إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ "من بداية المرينيين إلى نهاية السعديين"، ج2، نشر وتوزيع دار الرشاد الحديثة، 2000، ص 365.

إفرنجية تسمى بها عائلات مسيحية إسبانية وقد توافد على المغرب عناصر سودانية وقليل من الأتراك[1].

4- في تونس:

شهدت تونس خلال القرن 17م هجرة الموريسكيين الذين تأثروا بالحياة العامة التي شهدتها تونس بالإضافة إلى العنصر التركي الذي استوطن المنطقة كما كانت تابعة للسلطنة العثمانية. حافظت تونس على تقاليدها الإسلامية كما تأثر سكانها بالحياة والأساليب الإسلامية كما أن حاجياتهم من حيث اللباس كانت شبيهة بحاجيات العثمانيين أما المصريون والسوريون والجزائريون في تقاليدهم الإسلامية القوة قد أضفت على حياتهم اليومية وعلى ازيائهم طابعاً متقارباً للغاية[2].

[1]- إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص 367.

[2]- أحمد قصاب، حمادي الساحلي: تاريخ تونس المعاصر "1881-1956"، ط1، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، ص ص 192-193.

المحاضرة الثالثة عشرة: الحياة الاقتصادية في بلدان المغرب الحديث

1- الجزائر:

تأثرت الحياة الاقتصادية في الجزائر بأوضاعها الداخلية والخارجية، فمن الناحية الزراعية والحيوانية امتازت البلاد بغناها في هذا الميدان حيث عرفت نشاطا زراعيا ملحوظا خاصة في نهاية القرن 18م، إذ أصبح الإنتاج الزراعي يفوق الاستهلاك المحلي، حيث كانت تصدر كميات كبيرة من الحبوب إلى الخارج، كما توفرت البلاد على ثروة حيوانية كبيرة بدليل تصدير كميات هائلة من الجلود إلى الخارج، وكانت تجارة الحبوب محتكرة من قبا اليهود[1].

عرفت بعض الصناعات تطوراً كبيراً منها الصناعات التقليدية كالنسيج والبرانيس والزرابي إلا أنّها عرفت ركوداً كبيراً بسبب ظهور الثورة الصناعية في أوروبا وهذا نتيجة التفوق التكنولوجي والتطور العلمي.

أما التجارة الداخلية فاتسمت بطابع الاحتكار من طرف الطائفة اليهودية وكانت القوافل التجارية تتخذ الساحل مركزاً لها. وبالرغم من توفر المنتجات الزراعية كالحبوب، الشموع، الأصواف... وبالرغم من الأرباح الضخمة التي كانت تدرها تذهب معظمها إلى اليهود وكبار موظفي الدولة[2].

ومن الأسباب التي أدت إلى تدهور التجارة الداخلية وانعدام الاتصالات التجارية بين الدول العربية والإفريقية هو قيام النظام التركي بتعزيز المركزية مما نتج عنه الاكتفاء بالمتاجرة مع البلدان المجاورة مثل قسنطينة مع تونس وتلمسان مع المغرب الأقصى[3].

---

[1]- محمود علي عامر: تاريخ المغرب العربي الحديث "الجزائر تونس"، ط2، منشورات جامعة دمشق، 2000، ص 106.

[2]- المرجع نفسه، ص ص 106-107.

[3]- محمد العربي الزبيري: المرجع السابق، ص 192.

أما التجارة الخارجية فكانت الجزائر تصدر الحبوب، الزيوت، التمور، الأقمشة الصوفية والحريرية والمرجان والبارود... وغيرها، ولم تكن السلطة العثمانية تهتم بالتجارة الخارجية نتيجة الأوضاع الداخلية التي شهدت قيام الفوضى والاضطرابات إضافة إلى الدور الذي لعبه اليهود في إضعاف التجارة الداخلية والخارجية بسبب نفوذهم في دواليب الحكم[1].

2- ليبيا:

نتيجة الاضطرابات التي شهدتها عدد من مناطق طرابلس الغرب تصدع النشاط التجاري الذي كان ذات أهمية كبيرة في التبادل التجاري مع إفريقيا الوسطى.

من المنتجات التي كانت تصل إلى طرابلس الغرب النحاس القادم من المشرق والذي كان يستعمل في صناعة الخناجر وسك النقود وصناعة الأسلحة البيضاء وذكا صناعة الأقمشة.

كان لطرابلس عدة علاقات مع العديد من دول أوروبا ومن المنتوجات الأوروبية التي كانت تدخل إلى طرابلس ورق الكتابة والمرجان والعقيق والأقمشة القطنية والأسلحة النارية... وغيرها[2].

لقد تواجد بطرابلس الغرب العديد من التجار من مختلف المناطق منهم اليهود والمالطيون المسيحيون وتجار الانجليز والصقلية ومن الفرنسيين وغيرهم.

3- تونس:

أقامت تونس علاقات مع العديد من الدول الإسلامية سواء في إفريقيا أو المشرق العربي وتميزت تجارتها بالتبادل التجاري مع هذه المناطق، كما امتازت لديها بعض الصناعات منها الصناعة التقليدية التي امتازت بالجودة والأسعار المناسبة والتي غزت أشواق الشرق وشمال إفريقيا، وبلاد البلقان وأوروبا الغربية.

[1]- محمد العربي الزبري: المرجع السابق، ص ص 92-97.

[2]- أتوري روسي: ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة 1911، ترجمة: خليفة محمد التليسي، بيروت، 1974، ص 414.

وتعتبر الشاشية التونسية من أكثر المصنوعات رواجاً كما تصدر كميات هامة من الأقمشة الحريرية والقطنية والصوف والأثاث الخشبي[1].

شهدت الصناعة التونسية مع مطلع القرن 19م تدهوراً كبيراً بعد تأثرها بمزاحمة المنتوجات الأوروبية في مختلف الأسواق. كما بدأ حجم الصادرات من البضائع المصنوعة بتونس ينقص باستمرار في الأسواق اليونانية والجزائرية والمصرية، وبقيت طرابلس الوحيدة التي كانت تقتني المنتوج التونسي.

لعب الأندلسيون دوراً كبيراً في تعمير مناطق عديدة في تونس وإحيائها خاصة بعض القصور والتي قاموا بترميمها بطابع أندلسي كما ساهموا في النهوض الاقتصادي في القرن 17م وكانت صناعات النسيج نشطة بالعاصمة تونس والقيروان وسوسة[2].

4- المغرب الأقصى:

إن أهم عنصر ميّز الحياة الاقتصادية في المغرب خلال القرن 16م، هو رواج التجارة بشكل لم يعرف المغرب نظيرا له، إلاّ أنّ الفوضى التي شهدها المغرب في أواخر العهد السعدي أثر على الحركة التجارية فالثورات التي شهدتها المناطق الجنوبية التي كانت الممر الرّئيسي لهذه القوافل التجارية.

ومن أهم الموارد الفلاحية التي كانت تزخر بها البلاد: التمور والشعير والمواشي والزيوت إلى جانب العنبر وريش النعام الذي كانت تجارتها رائجة مع الخارج[3].

يعتبر السكر من أهم الصناعات المزدهرة في المغرب وهذا لارتباطه بالميدان الفلاحي وكانت منطقة وادي القصوب قرب الصويرة، وناحية شيشاوة في سهل سوس وناحية تارودانت في الشمال ناحية طنجة وسبتة، وقد قدر عدد المصانع بأربعة عشر مصنعاً. كما ازدهرت صناعة الزرابي، كما اعتمدت في وارداتها على الصفن الحربية

[1]- أحمد القصاب: المرجع السابق، ص 193.

[2]- محمد الهادي شريف: تاريخ تونس في عصور ما قبل التاريخ إلى الاستقلال، تعريب: محمد الشاوش، محمد عجينة، ط3، دار سراس للنشر، 1993، ص ص 76-77.

[3]- إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ، ج2، المرجع السابق، ص 377.

وكذا الأسلحة الأجنبية. أما التجارة فقد سيطر اليهود على التجارة المغربية واحتكروا معظم المنتوجات كالسكر، والملح، والبارود والتبغ وغيرها.

أما صادرات المغرب فتمثلت في السكر، والتمر، والنحاس الأحمر والذهب والشمع والجلود والمواشي[1].

[1]- إبراهيم حركات: المرجع السابق، ص ص 379-381.

المحاضرة الرابعة عشرة: العلاقات المغاربية الثقافية

ظل التواصل الثقافي مستمرا بين الأقطار الثلاث الجزائر، تونس والمغرب الأقصى، حيث لعبت الرحلات الحجازية دوراً كبيراً في ربط هذا التواصل عن طريق الاتصال المباشر الذي كان يتم ما بين الحجاج وسكان المناطق التي يمر بها ركب الحج خاصة في القرن 17م إلى غاية القرن 19م. كما كان للعلماء الرحالة دوراً كبيراً في ربط هذا التواصل بما كانوا يقدمونه من تدوين رحلاتهم وخاصة أثناء تنظيمهم لمختلف الحلقات العلمية، إلى جانب ظهور العديد من الطرق الصوفية في بلدان المغرب العربي، التي كان لها دور بارز في نشر مبادئ أخلاقية أثرت في المجتمعات المغاربية، ولذلك لقت اهتماماً من لدن حكام هذه الأقطار وذلك بمنحهم امتيازات كإلغاء دفع الضرائب. وعليه نستخلص أن كل من العلماء والطرق الصوفية كان لهم أدوار هامة في تاريخ المنطقة المغاربية.

1- علماء الجزائر في تونس:

تعد تونس من أهم الحواضر العلمية التي كانت مقصد العلماء وخاصة العلماء الجزائريين ومن أهم العلماء الذين قصدوا تونس للتعليم والتعلم الشيخ أحمد بن القاسم البوني الذي أخذ العلم في الجهة الشرقية من الجزائر وامتد إلى العمق التونسي في الجهة الغربية خاصة عنابة وتونس[1]، ثم شد الرحال إلى مصر أين أخذ العلم عن الشيخ عبد الباقي الزرقاني، وعاد إلى مسقط رأسه أين تفرغ لتدريس والتأليف ومن أهم مؤلفاته الذرة الموصونة في علماء وصلحاء بونة، وقيل ان عدد مؤلفاته بلغت 175 عنوانا[2].

كما نجد أيضا الشيخ عبد الرزاق ابن حمادوش من مدينة الجزائر الذي سعى جاهداً في التواصل مع العلماء والاستفادة من خبراتهم، ومن أهم العلماء الذين أخذ عنهم

[1]- أحمد القاسم البوني: الذرة الموصونة في علماء وصلحاء بونة، تقد وتح سعد بوفلاقة، منشورات بونة للبحوث والدراسات، الجزائر، 2007، ص 12.

[2]- عبد الرحمن الجيلالي: "تاريخ الجزائر العام، ط1، ج3، شركة دار الأمة للنشر والتوزيع، 2009، ص 178.

نجد الشيخ محمد بن ميمون الجزائري أما في تونس فقد درس على يد الشيخ محمد زيتونة، وقد اكتسب الشيخ بن حمادوش شخصية علمية من خلال رحلاته وتنقلاته لطلب العلم[1].

من العلماء الذين قصدوا تونس لطلب العلم نجد الشيخ أبو راس الناصري الذي كان من المهتمين بتحصيل المعارف من كبار علماء تونس والمغرب الأقصى، وقد اعترف له معظم العلماء بقوة حافظته إذ أنه كان سريع الحفظ وله القوة على استحضار أهم المسائل. ولعل أهم ملاحظة على علماء الجزائر أنهم كانوا من أشد المشجعين على طلب العلم مهما كانت الصعوبات[2].

ونظراً لبراعته في شتى علوم عصره، أجيز إجازات عامة وصف من خلالها بالحافظ، كما ترك الشيخ أبو راس الناصري عدة تآليف والتي يتجاوز عددها المائة وخمسين مؤلف في شتى الفنون والعلوم. ومن هذه المؤلفات نجد نزهة الفضائل في شرح الشمائل، وفي النحو عمدة الزهاد في إعراب كل شيء وجئت بلا زاد، ويمكن القول أن علماء الجزائر الذين قصدوا تونس قد برعوا في شتى العلوم وأسهموا بشكل كبير في الحركة العلمية في الجزائر[3].

لم تكن تونس البلد الوحيد الذي استقطب علماء الجزائر كذلك حواضر المغرب الأقصى هي الأخرى استقطبت مجموعة من العلماء يأتي على رأسهم الشيخ أحمد المقري الذي قصد فاس سنة 1600م، آخذاً العلم على يد جملة من أعلامها، وفي مقدمتهم الشيخ القصار والشيخ أحمد بابا التنبكتي الذي أخذ عنه المقري مختلف أصناف العلوم، ونظراً لذكائه وكثرة الحفظ وغزارة العلم أجازه الشيخ فارس أحمد بن القاضي، ومن أهم

[1]- أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ط1، ج2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998، ص ص 425-426.

[2]- صلاح مؤيد مطبقاني: الطرق الصوفية والزوايا في الجزائر تاريخها ونشأتها، ط2، دار البصائر، الجزائر، 2009، ص 441.

[3]- أبو راس الناصري: عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، تح: محمود بوركبة، ط1، ج1، منشورات الشؤون الدينية، 2002، ص ص 20-21.

مؤلفاته: نفح الطيب بغصن الأندلس الرطيب[1]. غادر المقري المغرب سنة 1618م نتيجة تدهور الأوضاع فيه خاصة بعد نشوب صراع بين أبناء أحمد المنصور على الملك.

كما عرفت الجزائر في هذه الفترة رحلة أخرى إلى المغرب خلال القرن الثامن عشر تمثلت في رحلة ابن حمادوش عبد الرزاق الذي عرف بميله إلى العلم، حيث قرأ العديد من الكتب في مختلف الفنون والعلوم، ومن بين العلماء الذين أخذ عنهم مناهل العلم الشيخ محمد بن محمد عبد السلام البناني الفاسي وأحمد بن الوزرزي التيطواني وتحصل عنهما على إجازة[2].

2- علماء تونس في الجزائر:

لم يكن علماء الجزائر وطلابها وحدهم شغوفين بطلب العلم والتنقل بين أقطار العالم الإسلامي بل نجد أيضاً علماء تونس الذين اتجهت أنظارهم نحو القدوم إلى الجزائر للاستفادة من منابعها العلمية ومن هؤلاء العلماء نجد الشيخ محمد تاج العارفين بن أحمد البكري العثماني الذي عرف بشغفه في طلب العلم وقد تتلمذ على يد عدد من علماء الجزائر في مقدمتهم الشيخ عيسى الثعالبي الجزائري ومن أشهر مؤلفاته: أعمال النظر البكري في تحرير الصالح النبوي التونسي.

كما وفد عدد كبير من علماء تونس في مقدمتهم الشيخ أحمد بن مصطفى برناز والشيخ حمودة عبد العزيز وإبراهيم الرياحي، وعليه يمكن القول أن علماء تونس والجزائر كانوا على صلة مع بعضهم البعض حتى وإن كانت هناك نزاعات أو صراعات ما بين البلدين[3].

3- علماء المغرب في الجزائر:

كما كانت هناك رحلات من علماء المغرب في اتجاه الجزائر والمتمثلة في رحلة ابن زاكور إلى الجزائر سنة 1685م للاستفادة من علمائها وكان على رأس من تتلمذ

[1]- عبد الوهاب أبن إبراهيم السملالي: الأعلام بمن حلّ مراكش وأغمات من الأعلام، تح عبد الوهاب ابن منصور، ط2، ج2، المطبعة الملكية، الرباط، ص 308.

[2]- أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج2، المرجع السابق، ص ص 146-147.

[3]- المرجع نفسه، ص ص 324-325.

على يديه الشيخ أبي الحفص عمر بن محمد بن عبد الرحمان المانجلاتي الذي أجازه لختمه جمع الجوامع ومن جملة ما تركه ابن زاكور من مؤلفات كتابه نشر ازاهر البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان من فضلاء أكابر الأعيان، وتعتبر رحلة ابن زاكور من أهم المصادر التي غطت فترة من أزهى عصور الدولة العثمانية في الجزائر[1].

ومن أهم العلماء المغاربة الذين قدموا إلى الجزائر من أجل طلب العلم أو الأخذ عن علماء الجزائر نجد الشيخ أبو سالم العياشي عبد الله بن محمد العياشي وقدوم أيضا الشيخ محمد الطيب بن عبد القادر الفاسي سنة 1694م والذي أجازه الشيخ مصطفى بن رمضان الحنفي الشهير بالعنابي[2].

4- علماء الجزائر في طرابلس الغرب:

شهدت طرابلس الغرب تحت النفوذ العثماني ركوداً فكرياً وثقافياً، إلا أن خلال حكم الأسرة القرمانية بداية من سنة 1711م ظهرت العديد من الشواهد العلمية تمثلت في نمو عدد المدارس والزوايا والمساجد لتعرف البلاد إنتاجاً فكرياً وعلمياً كبيراً. وقد شهدت طرابلس الغرب تواصلاً ثقافياً مع الجزائر وتمثل ذلك في الزيارة التي قام بها الورتلاني لطرابلس أثناء رحلته لأداء مناسك الحج، وقد وصف الورتلاني الأوضاع العامة لطرابلس في شتى المجالات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والعمرانية، وقد عاصر الورتلاني المؤرخ ابن غلبون صاحب كتاب "تاريخ طرابلس الغرب" المسمى "التذكار فيمن سلك وما كان بها من الأخبار"[3].

كانت المساجد في طرابلس الغرب في العهد العثماني تقوم بدور المدارس التي تؤدي أكثر من وظيفة، فهي المكان الذي يقصده الناس لأداء صلواتهم، والمكان الذي

[1]- ابن زاكور الفاسي: رحلة ابن زاكور الفاسي نشر ازاهر البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان من فضلاء وأكابر الأعيان، الجزائر، المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، 2011، ص ص 23-29.

[2]- أبو القاسم سعد الله: رائد التجديد الإسلامي محمد بن العنابي صاحب كتاب السعي المحمود في نظام الجنود، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990، ص ص 23-26.

[3]- ناصر الدين سعيدوني: دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر، الفترة الحديثة والمعاصرة، ج2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص ص 103-104.

يجتمعون فيه لمناقشة أمور دينهم ودنياهم وكذا المكان الذي يقصده طلبة العلم للتعليم والهداية.

اهتم حكام الأسرة القرمانية بتشجيع العلم والعلماء وقد ظهر ذلك من خلال الإقبال على التعليم وإحياء اللغة العربية وازدهارها ازدهاراً كبيراً، حتى أصبحت الوثائق تحرر باللغة العربية بعدما كانت اللغة التركية هي الغالبة وما يؤخذ على يوسف باشا أنه لم يهتم بالجانب العلمي حيث أبقى على النظم التعليمية القديمة ولم ينشئ المدارس الحديثة، كما لم يساير النهضة الفكرية والعلمية التي شهدتها مصر في عهد محمد علي[1].

أثناء زيارة الورتلاني إلى طرابلس الغرب وتنقله من مدينة إلى أخرى لاحظ نقص في المؤسسات التعليمية خاصة المدارس وقلة انشغال حكام طرابلس بالعلم والعلماء، ويقول في ذلك: «أما طرابلس وعلمائها فقد ضاقت على أهلها المعيشة فقد انعدم التدريس للعلم في طرابلس، وقلّ الانشغال بالعلم فلا نجد مجلساً فيه، وكيف يتصور العلم فيها مع أن علمائها أفضل علماء الأوطان... ومن أراد العلم فليذهب إلى مصر أو تونس»[2].

سعى الورتلاني عند حكام طرابلس محاولاً إصلاح أحوال التعليم حيث خاطب علي باشا بضرورة الاهتمام بالتعليم ومحاولاً نصحه حيث يقول: «... فلا بد أن تجعل محلاً يصل إليك جميع الناس يبثون إليك شكواهم... وقلت له أيضاً أنك أهملت العلم وأهله وقصرت في حقهم...».

كما ذكر الورتلاني مجموعة من أعلام مدينة طرابلس يتقدمهم الشيخ عبد الكريم الزواوي والشيخ عبد العزيز الصكلاني، وعمر السوداني، ومحمد العربي الأفرجاني، والشيخ محمد العربي ومحمد بن سعيد من مدينة تاجورا[3].

[1]- عمر بن علي ابن إسماعيل: انهيار الأسرة القرمانية في ليبيا 1795-1830، دون تاريخ.
[2]- الحسين الورتلاني: نزهة الأنظار في فضل أعلم التاريخ والأخبار، تحقيق محمد ابن شنب، مطبعة بيار فونتان، الجزائر، 1908، ص ص 621- 635.
[3]- الحسين الورتلاني: المرجع نفسه، ص 636.

الخاتمة

الخـــاتـــمـــة

من خلال هذا البحث توصلت إلى مجموعة من النتائج والاستنتاجات:

- ترتبط التطورات بشكل كبير في منطقة الشمال الإفريقي بسقوط وإضراري الآلاف من مسلمي الأندلس إلى الهجرة إلى بلدان المغرب العربي، وهذا ما أدى إلى ظهور حركة المقاومة ضد التحرش الإسباني.
- أعتبرت أسباب التواجد المسيحي في سواحل البلاد المغاربية الدافع الحقيقي لتواجد البحارة العثمانيين في الحوض المغربي للمتوسط المتمثل في الإخوة باربا‌روس الذين ساهموا في تحرير سواحلها.
- تواجد الإسباني بالسواحل المغاربية وإحتلالها لعدة مدن وموانئ ساحلية، ويعود السبب في ذلك لضعف دولها السياسي والعسكري خاصة الحفصيين والمرنيين والزيانيين في أواخر القرن الخامس عشر ميلادي.
- لعب الجانب الديني دورا كبيرا في ظهور حركة المقاومة التي كانت تنطلق من المدن الساحلية بتشجيع من العلماء الذين استعانوا بالإخوة باربا‌روس وسلموهم لواء الجهاد خاصة بعد تحقيق انتصارات على الدولة الإسبانية المسيحية في حوض المتوسط.
- إتخاذ العثمانيين الجزائر كقاعدة أمامية لتواجدها بالحوض المتوسط بعد إلحاقها بالخلافة، وإنشاءها للأسطول البحري الذي سيكون الذرع الواقي للمنطقة من الهجمات الأوروبية المسيحية خلال القرون اللاحقة لتكون الجزائر بذلك مركز العمليات العسكرية البحرية في المتوسط.

قائمة البيبليوغرافيا

أولا- المصادر:

1. ابن أبي الدينار، المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس، تح. محمد شمام، المكتبة العتيقة، تونس، 1967م.

2. ابن زاكور الفاسي، رحلة ابن زاكور الفاسي نشر ازاهر البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان من فضلاء وأكابر الأعيان، الجزائر، المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، 2011.

3. ابن غلبون الطرابلسي أبو عبد الله محمد بن خليل، تحميل كتاب التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار، تح. الطاهر أحمد الزاوي، دار المدار الإسلامي، بنغازي، 2002.

4. بربروسة خير الدين، مذكرات خير الدين بربروسة، الأصالة للنشر والتوزيع، الجزائر العاصمة، 2010.

5. البوني أحمد القاسم، الذرة الموصونة في علماء وصلحاء بونة، تقد وتح سعد بوفلاقة، منشورات بونة للبحوث والدراسات، الجزائر، 2007.

6. الزياني محمد بن يوسف، دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تح. محمد العبدلي، عالم المعرفة، الجزائر، 2012.

7. السملالي عبد الوهاب أبن إبراهيم، الأعلام بمن حلّ مراكش وأغمات من الأعلام، تح عبد الوهاب ابن منصور، ط2، ج2، المطبعة الملكية، الرباط.

8. فيرو شارل، الحوليات الليبية من الفتح الغربي حتى الغزو الإيطالي، ترجمة وتحقيق: محمد عبد الكريم الوافي، ط3، منشورات جامعة قاريونس، 1994.

9. مجهول، تاريخ الدولة السعدية التكمدارتية، تح: عبد الرحيم بن حادة، دار تينمل، مراكش، 1994.

10. المشرفي محمد بن محمد، الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية وعد بعض مفاخرها، ج1، تح. إدريس بوهليلة، دار أبي 20 الرقراق، الرباط، 2005.

11. الناصر محمد بن أحمد أبي رأس، عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، ج1، تر. محمد غانم، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2005.

12. الناصري، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى، الدولة السعدية، تح. جعفر الناصري، محمد ناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1955م، ج5.

13. الناصري أبو راس، عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، تح: محمود بوركبة، ط1، ج1، منشورات الشؤون الدينية، 2002.

14. الورتلاني الحسين، نزهة الأنظار في فضل أعلم التاريخ والأخبار، تحقيق محمد ابن شنب، مطبعة بيار فونتان، الجزائر، 1908.

15. الوزان الحسن بن محمد، وصف إفريقيا، ج2، تح. محمد حجي ومحمد الأخضر، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983.

ثانيا- المراجع باللغة العربية

1- الكتب:

1. ابن إسماعيل عمر بن علي، انهيار الأسرة القرمانية في ليبيا 1795-1830، دون تاريخ.

2. ابن المرابط المنتصر، نور الأرماش في مناقب أبي الغيث العشاش، المكتبة الوطنية التونسية.

3. الأرقش عبد الحميد، الأرقش دلندة، بن طاهر جمال، المغرب العربي الحديث من خلال المصادر، مركز النشر الجامعي- ميديا كوم، تونس، 2003.

4. الإمام رشاد، سياسة حمودة باشا في تونس 1782-1814م، منشورات الجامعة التونسية، 1980.

5. الأنصاري أحمد بك، المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب، مكتبة الفرحان، ليبيا.

6. الباروني عمر محمد، الإسبان وفرسان القديس يوحنا في طرابلس، مطبعة ماجي، ليبيا، 1952م.

7. البرشوش توفيق، جمهورية الدايات في تونس 1591- 1675م، مجموعة أيام الناس، (د.ت).

8. بيات فاضل، الدولة العثمانية في المجال العربي...، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2007م.

9. بن أشنهو عبد الحميد، دخول الأتراك العثمانيون إلى الجزائر، المطبعة الشعبية، الجزائر، د.ت.

10. بوحوش عمار، التاريخ السياسي للجزائر من البداية ولغاية 1962م، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1997م.

11. الجيلالي عبد الرحمن، تاريخ الجزائر العام، المطبعة العربية، الجزائر، 1955م.

12. الجيلالي عبد الرحمن، "تاريخ الجزائر العام، ط1، ج3، شركة دار الأمة للنشر والتوزيع، 2009.

13. حرب أديب، التاريخ العسكري والإداري للأمير عبد القادر الجزائري 1808-1847، ج1، دار الرائد للكتاب، الجزائر، 2004.

14. حركات إبراهيم، المغرب عبر التاريخ "من بداية المرينيين إلى نهاية السعديين"، ج2، نشر وتوزيع دار الرشاد الحديثة، 2000.

15. خوجة حسين، بشائر أهل الإيمان في فتوحات لا عثمان، المطبعة الرسمية العربية، تونس، 1908.

16. الدجاني أحمد صدقي، ليبيا قبيل الاحتلال الإيطالي، المطبعة الفنية الحديثة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1971.

17. روسي إيتوري، ليبيا منذ الفتح العربي حتى نهاية سنة 1911م، الدار العربية للكتاب، 1991.

18. الزبيري محمد العربي، التجارة الخارجية للشرق الجزائري، الجزائر، 1972.

19. الزيدي مفيد، موسوعة التاريخ العربي الحديث والمعاصر، دار أسامة، عمان، 2004.

20. سرهيد عنان خلف، التأثر الحضاري المتبادل بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية، دار حميثرا للنشر والترجمة، العراق، 2018.

21. سعد الله أبو القاسم، رائد التجديد الإسلامي محمد بن العنابي صاحب كتاب السعي المحمود في نظام الجنود، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1990.

22. سعد الله أبو القاسم:، تاريخ الجزائر الثقافي، ط1، ج2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998.

23. سعيدوني ناصر الدين، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر، الفترة الحديثة والمعاصرة، ج2، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984.

24. السيد محمود، تاريخ المغرب العربي -ليبيا-تونس-الجزائر- المغرب- موريتانيا، مؤسسة جامعة الشباب، مصر، 2000م.

25. شريف محمد الهادي، تاريخ تونس في عصور ما قبل التاريخ إلى الاستقلال، تعريب: محمد الشاوش، محمد عجينة، ط3، دار سراس للنشر، 1993.

26. صلابي علي محمد محمد، الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط، دار التوزيع والنشر الإسلامية، 1999م.

27. عامر محمود علي، تاريخ المغرب العربي الحديث "الجزائر تونس"، ط2، منشورات جامعة دمشق، 2000.

28. عباد صالح، الجزائر خلال الحكم التركي 1514-1830، دار هومة، الجزائر، 2012.

29. العقاد صلاح، المغرب العربي في التاريخ الحديث والمعاصر، ط06، المكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، 1993.

30. عنان محمد بن عبد الله، دولة الإسلام في الأندلس، ج7، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1997م.

31. الكتاني علي المنتصر، انبعاث الإسلام في الأندلس، دار الكتب العلمية، 2005.

32. العيدوس محمد حسن، تاريخ العرب الحديث، دار الكتاب الحديث، القاهرة، 2001.

33. غلاّب عبد الكريم، قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي، ج02، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2000.

34. فريق بصمة، التاريخ كما كان، كتوبيا للنشر والتوزيع، مصر، 2016.

35. قصاب أحمد، الساحلي حمادي، تاريخ تونس المعاصر "1881-1956"، ط1، الشركة التونسية للتوزيع، تونس.

36. كاكيا أنتوني جوزيف، ليبيا في العهد العثماني الثاني 1835-1911م، دار إحياء الكتب العربية، 1946م.

37. كريّم عبد الكريم، المغرب في عهد الدولة السعدية، منشورات جمعية المؤرخين المغاربة، الرباط، 2006.

38. لعروسي المطوي محمد، السلطنة الحفصية، تاريخها السياسي ودورها في المغرب الإسلامي، دار الغرب، بيروت، 1986.

39. المدني أحمد توفيق، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492-1792، ش.و.ن.ت.، الجزائر، 1968.

40. مروش المنور، دراسات عن الجزائر في العهد العثماني "القرصنة، الواقع والأساطير"، ج2، دار القصبة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009.

41. مطبقاني صلاح مؤيد، الطرق الصوفية والزوايا في الجزائر تاريخها ونشأتها، ط2، دار البصائر، الجزائر، 2009.

42. ملين محمد نبيل، السلطان الشريف، الجذور الدينية والسياسية للدولة المخزنية في المغرب، منشورات المعهد الجامعي- جامعة محمد الخامس، 2013.

43. الميلي مبارك، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، ج3، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، 1964.

44. ياغي إسماعيل أحمد، العالم العربي الحديث، مكتبة العبيكان، ط1، السعودية، 1997.

2- المذكرات:

أ- أطروحات الدكتوراه:

1. أبو مدينة حسين مسعود، ميناء طرابلس ليبيا، دراسة جغرافية النقل، أطروحة دكتوراه، قسم البحوث والدراسات الجغرافية، جامعة الدول العربية، 2005.

2. بن الشيخ علي، مملكة كوكو ونظامها السياسي والعسكري، أطروحة الدكتوراه، جامعة مولود معمري تيزي وزو، 2018م.

3. سحابات زهيرة، الحضور الجزائري في إيالة طرابلس خلال العهد العثماني - 18301628م، أطروحة لنيل درجة الدكتوراه، جامعة سيدي بلعباس، 2020م.

4. قرباش بلقاسم، الأسرى الأوروبيون في الجزائر خلال عهد البايات (1671-1830م)، أطروحة دكتوراه، جامعة معسكر، 2016م.

ب- رسائل الماجستير:

1- بلغيث عبد القادر، الحياة السياسية والاجتماعية بمدينة وهران خلال العهد العثماني، مذكرة لنيل درجة الماجستير، جامعة وهران، 2014.

2- الحسيناوي محمود عاشور عبيد، موقف الدولة السعدية من مسلمي الأندلس بعد سقوط غرناطة 1510-1659م، مذكرة لنيل درجة الماجستير، جامعة ذي قار، 2013م.

3- رحموني عبد الجليل، اهتمامات المجلة الإفريقية بتاريخ الجزائر العثمانية 1520-1830م، مذكرة لنيل درجة الماجستير، جامعة سيدي بلعباس، 2015م.

4- صنديد ياسين، الأسرة الحسينية ودورها في العلاقات السياسية الاقتصادية بين تونس وفرنسا، مذكرة لنيل درجة الماجستير، جامعة غرداية، 2012م.

3- المقالات:

1. أوزايد بالحاج، تجارة القوافل بين الجزائر وإفريقيا جنوب الصحراء في العهد العثماني ودورها الحضاري، مجلة روافد للبحوث والدراسات، ع.02، جامعة غرداية، 2017م.

2. آيت بلقاسم فاطمة الزهراء، الحكم العثماني في الجزائر وتونس دراسة مقارنة، دورية كان التاريخية، ع37، سبتمبر 2017م.

3. بن قومار جلول وسهيل جمال، مشاهدات الرحالة المغاربة في المسالك والطرق من خلال الرحلات الحجازية، مجلة دراسات تاريخية، مج. 10، ع.01، 2022م.

4. بوتوقاماس حفيظة، النشاط التجاري للمجتمع التونسي خلال العهد الحسيني 1705-1830م، مجلة معارف، جامعة البويرة، م.10، ع.18، 2015.

5. بووشن محسن، التنافس الإسباني -الإنجليزي حول الثغور المغربية خلال عهد أحمد المنصور السعدي: العرائش نموذجاً، مجلة المقدمة للدراسات الإنسانية والاجتماعية، مج.5، ع.02، 2020.

6. جوامع سالم،طرابلس الغرب من انهيار الحكم الحفصي إلى الفتح العثماني (قراءة تحليلية في التطورات السياسية من منتصف القرن لا 15 إلى منتصف القرن لا 16م)، المجلة للجزائرية للأبحاث والدراسات، م04، ع01، جانفي 2021م.

7. دوبالي خديجة، الغزو الإسباني على السواحل الجزائرية (911-917هـ/ 1505-1511م)، مجلة القرطاس، ع. 06، جوان 2017م.

8. سالم فرج عبد القادر، دور بنك دي روما في التمهيد للغزو الإيطالي لليبيا (1907-1911م)، مجلة جامعة سبها، مجلد 7، ع.1، 2008.

9. سعيداني محفوظ، التجارة بأقطار المغرب العربي في العهد العثماني ما بين القرنين (18-19م)، المجلة التاريخية الجزائرية، مج.02، ع.02، 2021.

10. شريف أسماء، شعباني نور الدين، العلاقات التجارية بين الجزائر وغرب إفريقيا خلال العصر الحديث، م.25، ع.58، مجلة المعيار، جامعة قسنطينة، 2021.

11. صادق الحاج، دور ركب الحج الجزائري في التواصل الثقافي بين الجزائر والمشرق العربي خلال العهد العثماني، مجلة المفكر، م.5، ع.1، جوان 2012م.

12. صادوق الحاج، أثر الرحلات المغاربية على البيئة الجزائرية، مجلة تاريخ المغرب العربي، المجلد 4، العدد 2، 2018.

13. صديقي بلقاسم، غرناطة بين الصمود وحتمية السقوط وأثرها على المغرب العربي والمواقف الإسلامية منها، مجلة الدراسات التاريخية، ع1، جامعة الجزائر، أكتوبر 2019م.

14. عبيد مصطفى، طرابلس الغرب من الاحتلال الإسباني إلى دخول العثمانيين 1510-1551م، مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، م09، ع18، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، سبتمبر 2019.

15. قدور عبد المجيد، النشاط الاقتصادي الفرنسي في الجزائر وتونس خلال العهد العثماني، مجلة العلوم الإنسانية، ع.28، ديسمبر 2007.

16. محمد عوض رجاء وأمحمد الجبو القذافي أمال، النشاط الاقتصادي للموانئ الليبية خلال العهد العثماني الثاني 1835-1911م، المجلة الجامعة، مج04، ع.22، ديسمبر 2020.

17. مجيد كامل حمزة، مرتكزات السياسة الخارجية المغربية في افريقيا جنوب الصحراء، المجلة السياسية والدولية، د.ت.

18. لزعر نبيل:، أساليب إيطاليا الممهدة لاحتلال ليبيا، مجلة الحكمة للدراسات التاريخية، مج5، ع.12، ديسمبر 2017.

19. لزعر نبيل، أوضاع ليبيا قبل الاحتلال الإيطالي، المجلة الجزائرية للدراسات التاريخية والقانونية، ع06، ديسمبر 2018م.

20. لزغم فوزية، بايات الأسرة الحسينية بتونس، تكوينهم العلمي وأثرهم في الحركة العلمية 1705-1814م، مجلة العبر للدراسات، كان التاريخية، مج03، ع02، سبتمبر2020.

21. محرز أمين، الجزائر في عهد الآغوات 1659-1671م، البصائر، الجزائر، 2013.

4- الملتقيات:

1. رنيمة أحمد، المشروع العثماني والمجابهة الفكرية الأوروبية خلال القرن السادس عشر الميلادي، ملتقى التنافس الإسباني في غرب البحر المتوسط مطلع القرن 16 الميلادي، 09-10 نوفمبر 2010، كلية الآداب واللغات، جامعة الشلف.

5- الكتب المترجمة:

1. أرمسترونغ كارين، النزعات الأصولية في اليهودية والمسيحية والإسلام، ترجمة محمد الجورا، دار الكلمة، ط1، دمشق، 2005.

2. ألتر عزيز سامح، الأتراك في إفريقيا الشمالية، تر. محمد علي عامر، دار النهضة العربية، بيروت، 1989م.

3. أوزوتونا يلماز، تاريخ الدولة العثمانية، ج1، ترجمة عدنان محمود سلمان، مراجعة وتنقيح: محمود الأنصاري، منشورات مؤسسة فيصل للتمويل، تركيا، 1988.

4. روسي أتوري، ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة 1911، ترجمة: خليفة محمد التليسي، بيروت، 1974.

5. لفوميكاكي رود، طرابلس الغرب، تحت حكم أسرة القرمنلي، تر. فوزي طه، دار الفرجاني، ليبيا.

6. ماخوفسكي ياتسيك، تاريخ القرصنة في العالم، تر. أنور محمد إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2008.

ثالثا- المراجع الأجنبية

1- Bandini Franco: Gli italiani in Africa. Storia delle guerre coloniali 1882-1943 [The Italians in Africa. History of the Colonial Wars 1882-1943] (in Italian), Milan: Longanesi & C, 1971.

2- Berthier Pierre : La bataille de l'oued el-Makhazen : dite bataille des Trois Rois (4 août 1578), Ed. du C.N.R.S., Paris, 1985.

3- BRAUDEL Fernand: The Mediterranean and the Mediterranean World in the Age of Philip II, Volume 01, Univ of California Press, 1995.

4- Brevés : Relation de Voyages, Paris, 1628.

5- Childs John: The Army, James II and the Glorious Revolution, Manchester, University Press, 1980.

6- Coleman James: "The Barbary Corsairs in Ireland", The Journal of the Royal Society of Antiquaries of Ireland, Fifth Series, Vol.01, N.02, 1890.

7- Corbett Jullian S.: England in The Mediterranean, 2Vol (Vol 2), 2nd Ed, Longmans, Greend and Co, London, 1916.

8- Davis Robert : Esclaves Chrétiens, Maitres Musulmans, L'esclave Blanc en Méditerranée 1600-1800, Tr. Manuel Tricoteau, Ed. Jacqueline Chambon, Paris, 2006.

9- De Grammont H.D. : Quel est le lieu de la mort d'Aroudj Barberousse, Revue Africaine, n°22, 1877.

10- De Grammont : Histoire d'Alger sous la Domination Turque (1515-1830), Paris, Ernest Eroux Editeur , 1887.

11- De Haedo Fray Diego : Topographie et Histoire générale d'Alger, Traduit par Mounreaut, Berbrugger1870.

12- De Haedo Fray Diego : Histoire des Rois d'Alger, Traduit par H.D. De Grammont, Adolphe Jordan, Alger,1881.

13- De Jamil M et Alt. : A History of the Maghrib in the Islamic Period, Cambridge University Press, 1987.

14- De Tassy Laugier : Histoire de Royaume d'Alger Avec l'État présent de son gouvernement, de ses forces de terre et de mer & de ses Revenus, Police, Justice Politique & commerce, Henri du Sauzet, Amsterdam,1837.

15- El Achi, Soha: Children and Slave Emancipation in French Algeria and Tunisia (1846- 1892). PHD, Georgetown University, 2017.

16- Espinosa Aurelio: The Empire of the Cities, Emperor Charles V, the Comunero Revolt, and the Transformation of the Spanish System, Vol 137, Leiden: Brill, 2009.

17- Farber, Hannah: "Millions for Credit: Peace with Algiers and the Establishment of : America's Commercial Reputation Overseas, 1795–96.", Journal of the Early Republic, 2014.

18- Filali Kamel : L'Algérie mystique: Des marabouts fondateurs aux khwân insurgés, XVe-XIXe siècles, Publisud, coll. «Espaces méditerranéens», Paris, 2002.

19- Fleuvry Lame, Histoire de l'Algérie racontée à la jeunesse, A. Allouard libraire, Paris, 1848.

20- Gábor Ágoston, Bruce Masters: Encyclopedia of the Ottoman Empire, Facts On File Inc, New-York, 2009.

21- Gaignard Catherine : Maures et chrétiens à Grenade 1492-1570, Editions L'Harmattan, 1997.

22- Garcé María Antonia : Cervantes In Algiers: A Captive's Tale, Vanderbilt University Press, Nashville, 2002.

23- Gardiner Davenport Frances: European Treaties bearing on the History of the United States and its Dependencies to 1648 , Washington, Institution of Washington, 1917.

24- Genevois (H) : Légende des rois de Koukou, n°121, 1974.

25- Gobel Erik: "The Danish-Algerian Sea Passes, 1747-1838: An Example of Extraterritorial Production if Human Security", Historical Social Research, Vol.35, N.04, 2010.

26- Goffman Daniel: The Ottoman Empire and Early Modern Europe, New York: Cambridge University Press 2004.

27- Gürkan Emrah Safa: Ottoman Corsairs in The Western Mediterranean and Their Place in The Ottoman Habsburg Rivalry (1505-1535), A Master's Thesis, Ankara: Bilkent University, June 2006.

28- Hakluyt Richard: The principal navigations, voyages, traffiques, and discoveries of English Nation, made by sea or over-land, South and south-East parts of the World, at any time within the compasse of these 1600 years… exc. 2nd, George Bishop, Ralph Newbery, Robert Barker, London, 1599.

29- Hartel, H et alt,: The Last Great Muslim Empires, BRILL, 1997.

30- Harvey L.P.: Muslims in Spain, 1500 to 1614, University of Chicago Press, 2005.

31- Hayward Keniston: "Peace Negotiations Between Charle 5 and Francis 1, (1537-1538), Proceeding of The American", Philosophical Society, Vol 102, N°2, (April 1985).

32- Hillgarth JN: Spanish Kingdoms, 1250-1516, vol.2, Oxford University Press, 1976.

33- Hitchcock Richard: The Conquest of Granada in Nineteenth-Century English and American Histography, Medieval Spain, Jan. 2002.

34- Holt M.: The Cambridge History Of Islam: The Central Islamic Lands From Pre-Islamic Times to The First World War, Vol IA, Cambridge University Press, 1970.

35- Housley Norman: Religious warfare in Europe, 1400-1536, Oxford University Press, New York, 2002.

36- Jamieson Alan G.: Lords of Sea, A History of the Barbary Corsairs, Reaktion books ltd, London, 2012.

37- Kaddache Mahfoud : L'Algérie durant la période ottomane, Office des publications universitaires, Alger, 1998.

38- Kenneth M. Setton: The Papacy and the Levant (1204–1571), Vol.03, The Sixteenth Century to the Reign of Julius 3, The American Philosophical Society, Philadelphia, 1984.

39- Kettani Ali: Muslims in Spain after the Fall of Granada: suppression, Resistance, Eclipse, and Re-emergence, Islamic Studies, 1997, vol. 36, num. 4, Winter 1997.

40- Kuran E. : La lettre du dernier Dey d'Alger au Grand Vizir de l'Empire Ottoman, R.A., n°96, Alger, 1952.

41- Ladero Quesada, Miguel Ángel : Las Indias de Castilla en sus primeros años: cuentas de la Casa de Contratación (1503-1521), Dykinson, 2008.

42- Martin Andrew Sharp Hume: Spain: Its Greatness and Decay (1479-1788), University Press, 1899.

43- Mattei A. : Protestation contre détracteur du système administratif suivi actuellement en Algérie, E. Denni Libraire éditeur, Paris, 1869.

44- Mercier Ernest : Histoire de l'Afrique septentrionale (Berberie) depuis les temps les plus reculés, jusqu'à la conquête française (1830), T2, Paris: Ernest Lourex Editeur, 1868.

45- Panzac Daniel: Barbary Corsairs, The End of a Legend 1800-1820, Tr. Victoria Hobson, LEIDEN: Brill, 2005.

46- Pierre Dan R.P. : Histoire de barbarie et de ses corsaires des royaume et des villes d'Alger, de Tunis, de Salé, et de Tripoli, Pierre Rocolet, Imprimeur & Libraire ordinaire du Roi, seconde édition, Paris,1646.

47- Playfair, E. L.: The scourge of Christendom, Annales of British relations with Algiers prior to the French conquest, Smith, Elder, And Co, London, 1884.

48- Playfair Lambert Robert: Handbook for Travellers in Algeria and Tunis, Algiers, Oran, Constantine, Carthage, Etc. J. Murray, 1887.

49- Prescott WH: The Art of the War in Spain: The Conquest of Granada, 1481-1492, Greenhill Press, 1995.

50- RAMIRO JESÚS BERMÚDEZ: Modulaciones rítmicas en la lírica latina. Las Odas de Horacio. Madrid: Ediciones Clásicas, 2007.

51- Rang S., Denis F. : Fondation de la régence d'Alger Histoire de Barbaresque, Tome1, J. Ange éditeur, Paris,1837.

52- Ray J. J. E. : Histoire de l'Algérie (depuis les temps les plus anciens jusqu'à nous jours), Tours, Ad Maure Cie,1859.

53- Rivet Daniel : Histoire du Maroc: de Moulay Idrîs à Mohammed VI, Fayard, 2012.

54- Saʿdids: Encyclopaedia of Islam, T.08, Brill, 1910.

55- Sariny Yusuf : Osmanli belgeleride Cezayir, Ankara, Osmanlı Arşivi Daire Başkanlığı, 2010.

56- Stanley Lane-Poole: The Story of the Barbary corsairs, G.P. Putnam's Sons, New York, 1890.

57- Stella Alessandra : Histoires d'esclaves dans la Péninsule Ibérique, Édition de l'École des Hautes Etudes en Sciences Sociales, Paris, 2000.

58- SUTHERLAND Alexander: Achievements of the Knights of Malta, Carey & Hart, 1846.

59- The Encyclopaedia of Islam, New Edition, Volume I: A–B. Leiden: E. J. Brill.

60- Vandervort, Bruce: Verso la quarta sponda la guerra italiana per la Libia (1911-1912) [Towards the Fourth Shore: the Italian War for Libya (1911-1912)] (in Italian). Rome: Italian Army General Staff, 2012.

61- Vella Andrew P: "The Order of Malta and the defence of Tripoli 1530–1551", Melita Historica, Vol. 6, N. 4, 1975.

62- Vella Andrew, Norman Housley: Religious Warfare in Europe, 1400-1536, New York: Oxford University Press, 2002.

63- Vitkus Daniel: Three Turk Plays from Early Modern England: Selimus, a Christain Turned Turk, and the Renegado, Columbia University Press, New York, 2013.

الفهرس

المحاضرة الأولى: سقوط غرناطة وانعكاساتها على الدول المغاربية..... 6

المحاضرة الثانية: أوضاع الدول المغاربية في أواخر القرن الخامس عشر ميلادي ومطلع القرن السادس العشر 13

المحاضرة الثالثة: المد العثماني في الحوض الغربي للمتوسط 21

المحاضرة الرابعة: ظروف إلحاق الدول المغاربية (طرابلس الغرب، تونس) بالدولة العثمانية 32

المحاضرة الخامسة: تطور نظام الحكم في الجزائر خلال الفترة العثمانية.... 49

المحاضرة السادسة: تطور نظام الحكم في المغرب الأقصى في فترة السعديين والعلويين 62

المحاضرة السابعة: تطور نظام الحكم في تونس..... 71

المحاضرة الثامنة: تطور نظام الحكم في طرابلس الغرب..... 81

المحاضرة التاسعة: علاقات الأقطار المغاربية الخارجية مع المشرق العربي 90

المحاضرة العاشرة: علاقات الأقطار المغاربية الخارجية مع إفريقيا..... 92

المحاضرة الحادية عشرة: علاقات الأقطار المغاربية الخارجية مع أوروبا.. 94

المحاضرة الثانية عشرة: الحياة الاجتماعية في بلدان المغرب الحديث..... 99

المحاضرة الثالثة عشرة: الحياة الاقتصادية في بلدان المغرب الحديث..... 102

المحاضرة الرابعة عشرة: العلاقات الثقافية بين البلدان المغاربية 106